

السيد حسين نزار فضل الله

دار الولاء
بيروت - لبنان


من هو الله





لبنـــان - بيـروت - برج البراجنة - الرويـس - شـارع الرويـس
تلفاكس: 545133 1 00961 - 689496 3 00961 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com - daralwalaa@yahoo.com

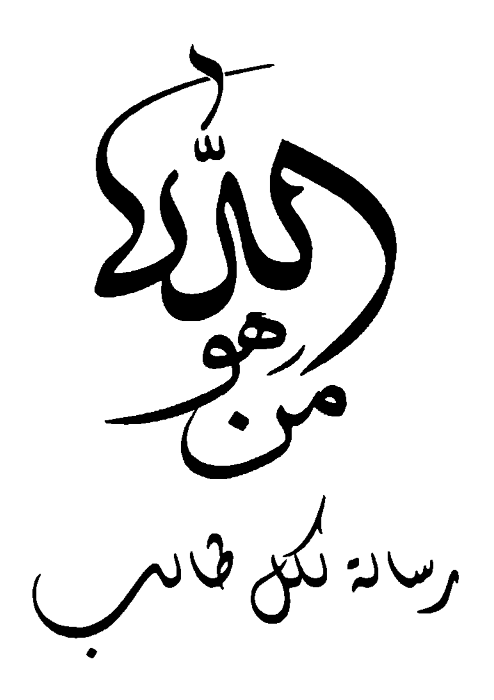
ISBN 978-614-420-089-6

اسم الكتاب: من هو الله ـ رسالة لكل طالب

المؤلـــف: السيد حسين نزار فضل الله

الناشــــر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعــــة: الثانية ـ بيروت ٢٠١٤م ـ ١٤٣٤هـ



السيد حسين نزار فضل الله

دار الولاء
بيروت - لبنان


بسم الله الرحمن الرحيم



إهــداء

إلى كلّ الذين لم يحبّوا الله؛ لأنم لم يعرفوه.

ولم يقتربوا منه؛ لأنّهم ما أدركوا أنّه ينتظرهم.

ولم يأنسوا به؛ لأنهم جهلوا صفاته.

ولم يدعوه؛ لأنّهم ظنّوه بعيداً.

إلى كلّ الذين يحركهم شوق لم يعرفوا مصدره.

إلى كلّ مهاجر، راحل إلى نفسه.

إلى كلّ غائب، قد حضر في اللحظة المناسبة،

فأشبع روحه، وروى ظمأه.

إلى نفسي، ونفسك.

أرسم هذا الطريق.

... ومن سار على الدرب وصل.

والله من وراء القصد

ح.ف.





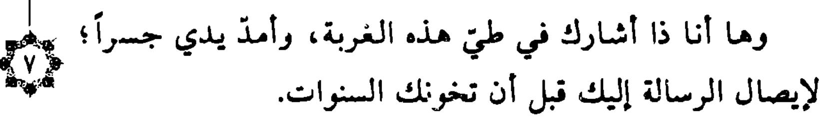
مقدّمة الطبعة الأولى

صديقي القارئ،

يُسعدني أن يقع كتاب هذا بين يديك، وهو رسالة من قلبي إلى قلبك، ومن عقلي إلى عقلك.

إنّها أسئلة، لطالما شغلت بالي مذ كنت طالباً في الجامعة، منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة.

ولأنّني أحرص على الوفاء لجيلٍ كنت ولا زلتُ أنتمي إليه، عزمت أن أكتب هذه الرسالة إليك أيّها الأخ والصديق، وقد ضمّنتها جملة من المطالب، لا أدَّعي أنّها لم تعالَج من قبل، بل ما أدَّعيه هو أنَّها لم تصل إلى الطالب الجامعيّ في الوقت المناسب، وبالشكل المناسب، ممّا يُبقي هذا الطالب في غربة عن المطالب الحقّة.



وها أنا ذا أشارك في طيّ هذه الغربة، وأمدّ يدي جسراً؛ لإيصال الرسالة إليك قبل أن تخونك السنوات.





أيّها العزيز:

مع شكري المسبق لك لطول صبرك على مرافقتي حتّى الصفحة الأخيرة، أطلب منك مواكبتي في رسالة جديدة سأبعثها إليك، إن شاء الله تعالى.

صديقك وأخوك

حسين نزار فضل الله

الثلاثاء ٢٠ جمادي الثانية ١٤٢٤هـ

١٩ آب ٢٠٠٣م





مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزٌ على قلبي أن تقع الطبعة الثانية بين يدي القارئ الكريم، والذي جهد قلمي وقلبي أن يكتبا له بإصرار وإخلاص فكانت الطبعة الأولى رسالة ثمينة جنيت منها كنوزاً من حبّ، وجواهر من إيمان وعطاء..

وما أشدّ فرحي واغتباطي عندما كان يُخبرني بعض من قرأ كتابي أنه انكبّ على مطالعته بشغف ودون توقف حتى ختمه. وما أكثر سروري عندما كنت أعلم أن الشباب خصوصاً ـ وجلّهم من طلاب الجامعات ـ كان لهم الحظ الأوفر في الاستفادة من كلماتي..

فإلى الشباب الجامعي الواعد...

إلى أخوتي وأخواتي في الله أقول:

شكراً لكم لأنكم لا تزالون تصرّون على القراءة في زمن تغيّرت فيه الأبجدية، واستُبدل الحرف الناطق بحروف رقمية،





أقل ما يقال فيها: إنها حروف عمياء، عرجاء، تُكتب ولا تُقرأ، وتُقرأ ولا تُفهم، وتُفهم ولا تَنفع...

شكراً لكم لأنكم كسرتم الحصار على الكتاب، ورفضتم أن تصبح أمَّة «إقرأ» أمَّة بلا هوية وبلا عنوان، وبلا كتاب...

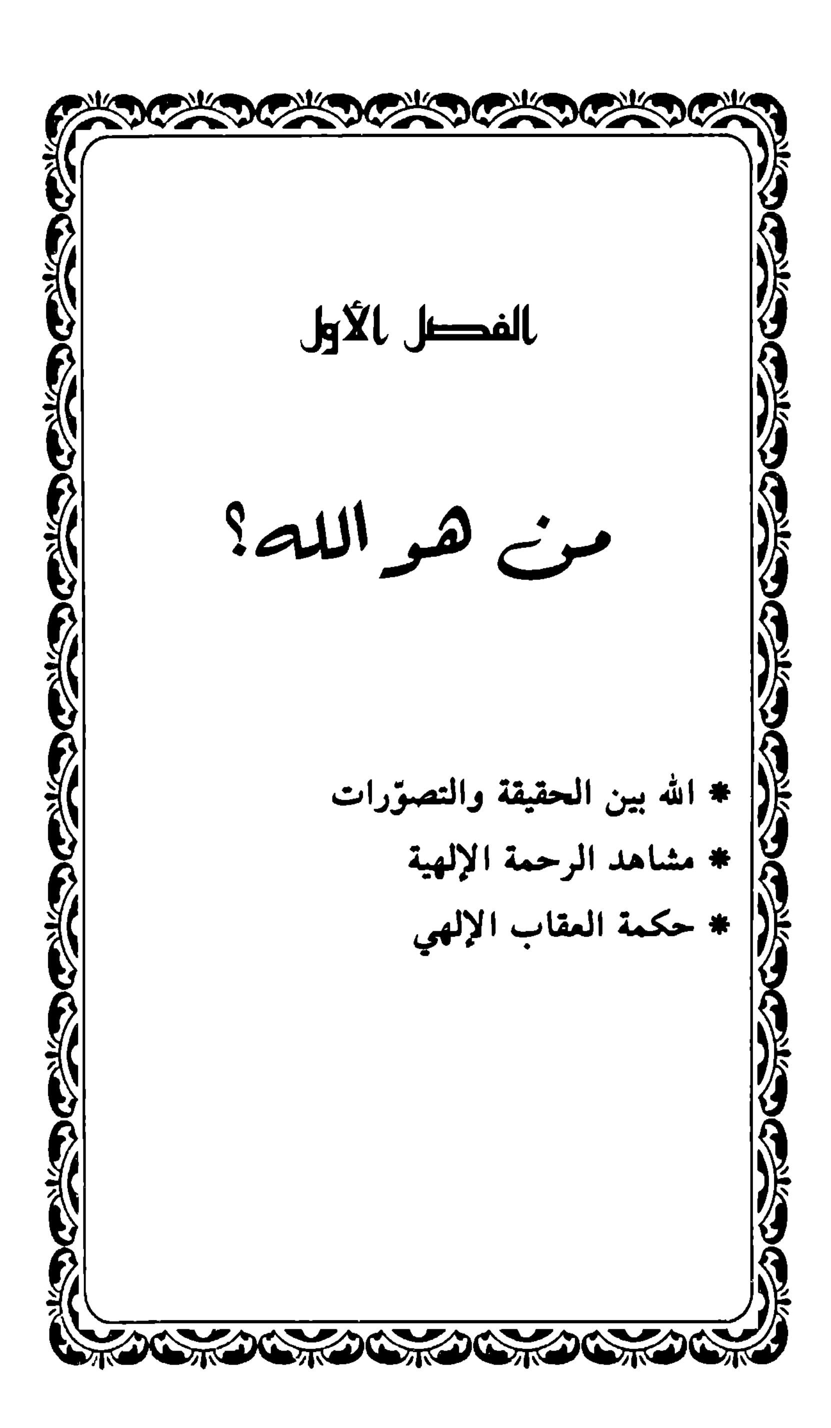
لقد كتبتم أسماءكم في سجل الأبطال الذين لم تمسخ عقولهم الفضائيات، ولا الشبكات العنكبوتية...

شكراً لكل من أعاد جمع الحرف في زمن الحرب على الكلمة، وإلى هؤلاء الأحباب أقدم طبعتي الثانية، وهي مصحّحة ومنقّحة، وقد أدخلت عليها بعض النكات المفيدة، والتي نسأل الله أن يفيد بها عامّة القرّاء، وأن ينفعنا بما كتب قلمنا، وأن يعذر تقصيرنا وقصورنا، وأن يتقبَّل منّا بضاعتنا المزجاة إنه سميع الدعاء.

المؤلف

٢٧ محرم ١٤٣٤هـ.

١٢/ ك١/ ٢٠١٢م.



الفصل الأول

من هو الله؟

* الله بين الحقيقة والتصوّرات
* مشاهد الرحمة الإلهية
* حكمة العقاب الإلهي



اللّه بين الحقيقة والتصوّرات

قد شغل الله (تبارك وتعالى) ـ أو شغلت فكرة (الإله) ـ البشر منذ اليوم الأوّل للخليقة. وكان الإنسان منذ فجر ولادته يشعر بانتمائه إلى وجود آخر، تتمثّل فيه كل مشاهد العظمة، التي يمكن أن يصدر عنها وجود الإنسان بكلّ أسراره.

وحيث أنّ الله (كإله) لم يكن مورد نزاعٍ، ـ في الغالب ـ، إلاّ في حقب محدودة، فلن أغيّر مسار هذا البحث ليصبح استدلالاً على وجود الله، رغم أنّي سأتعرّض لبعض الأدلّة لاحقاً.

لذا أقول:

إنّ الله (تعالى) قدّم نفسه للإنسان بوسائل متعدّدة، منها: الرّسالات السماويّة، والعقل، والفطرة الإنسانيّة، ومنها الآيات في الآفاق، والآيات في الأنفس، وغير ذلك...

ولكنّ العقل البشريّ ـ الذي خلقه الله واسعاً ورحباً، وجعل هذا من خصوصياته ـ تعدّت سعته ورحابته على صورة الآله، وقدّمته في بعض حقب التاريخ (حجراً) أو (صنماً) أو (ناراً) أو (شمساً) أو (قمراً) أو (عجلاً)، أو غير ذلك...



ومن الطريف ما يُنقل، من أنّ العرب في الجاهليّة كانوا

يصنعون (آلهتهم) من التّمر، فإذا جاء فصل الشتاء واحتاجوا إلى الغذاء عمدوا إلى آلهتهم فأكلوها.

ومن الطريف ـ أيضاً ـ ما ينقل، من قصّة أحد أصحاب النبيّ ﷺ، والتي كانت سبباً لابتعاده عن عبادة الأصنام، ودخوله في الإسلام، وقد كان النبيّ محمّد ﷺ يأنس بالاستماع إلى هذه القصّة، وخلاصتها: إنّ هذا الصحابيّ (كان يعبد الأصنام، شأن كثير ممّن كان في الجاهليّة)، دخل ذات مرّة إلى صنمه، فوجد ثعلبين يلحسان ما حوله، ويأكلان ما يُهدى له، ثمّ يبوّلان عليه، فأثّر فيه هذا المشهد، ورجع إلى نفسه، فعزَّ عليه أن يعبد إلهاً لا يملك أن يدفع عن نفسه هذه المهانة، فآمن من فوره بالله المنزّه عن مجانسة المخلوقات[1].

ثم أنشد يقول:

أربٌّ يبول الثّعلبان برأسه لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

وعلى أيّ حالٍ فإنّني أعتبر هذه الإشارات كافية في إيضاح الصورة، دون أن أضطرّ إلى الإطالة على القارئ، فأنا لن أنسى أنّني أخاطب طالباً جامعيّاً في الألفيّة الثالثة؛ مع ما يعنيه تراكم المعارف، ونضوج الثقافات الإنسانيّة والمعرفيّة التي ساهمت في تقديم «صورة الله»، صورة منزّهة ـ إلى حدّ ما ـ، عن الزمان والمكان والفضاء. فلم يعد الله يحتاج إلى الأبعاد والاتّجاهات، فهو إله لا يمكن وصفه، كما يقول الإمام عليّ عليه السلام:

(1) ابن كثير، إسماعيل: السيرة النبويّة، ط٢، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ١٩٩٩، ج١، ص٤٠٣.

«... مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ...»[1].

وبالرغم من الحاجة إلى تفسير روائع هذا الكلام المتقن لأمير البلاغة عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلاّ أنّني مضطّر أن أكمل طريقي؛ لأرسم من وحي هذا الكلام «صورة الله»، التي نحتاج أن نظهرها على حقيقتها، الخالية من إساءتنا إلى مضمونها، لنعاود السؤال الأهمّ:

من هو الله؟

هل الله هو الإله الذي يُذكّرنا ـ دائماً ـ بالنار والعقاب؟

هل الله هو الإله الذي يُصدر ـ دائماً ـ الأوامر والنواهي؟

هل الله هو الإله الذي يرفع العصا ـ دائماً ـ فوق رؤوسنا؟

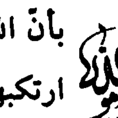
أيّها العزيز،

إنَّ قلبي حزين جداً وأنا أتجرّأ على طرح هذه الأسئلة: لأنّها، للأسف، تعبّر عن صورة الله المزروعة في عقول البعض منا، فلا يعرف ـ هذا البعض ـ عن الله سوى أنّه الصوت الذي يرتفع، ليقول دائماً «لا تفعل» أو أنه «الشرطيّ» ـ والعياذ بالله ـ الذي يَسوس الناس بالقهر والتعنيف والإذلال.

أو إله العقاب والمكر والإيقاع؟!

وما أقسى المشهد الذي يرسمه البعض لطفله، عندما يهدّده

(١) نهج البلاغة: ط١، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ١٩٩٣، ص٣٠٥.



بأنّ الله (تعالى) «سيخنقه» ردّاً على خطاءٍ طفيف، أو هفوة بريئة ارتكبها هذا الطفل.

وهذا المقدار يكفي في تصنيفنا أصحاب أحكام قاسية على الله (تبارك وتعالى).





مشاهد الرحمة الإلهية

«اَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَقْرَبُ مَنْ دُعِيَ، وَأَسْرَعُ مَنْ أجابَ، وَأَكْرَمُ مَنْ عَفى، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطى، وَأَسْمَعُ مَنْ سُئِلَ، يا رَحمانَ الدُّنْيا والآخِرَةِ، وَرحيمُهُما...»[1].

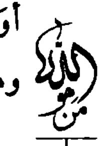
إنَّ الله (تعالى) يمثّل الجمال المطلق، بل هو مصدر كلّ جمال، وهو الكمال المطلق، بل هو مصدر كلّ كمال. وهو الخير المطلق، بل هو مصدر كلّ خير، وهو الحبّ المطلق بل هو مصدر كلّ حبّ.

والله (تعالى) مصدر كلّ الكمالات، والمصداق الأوحد لكلّ الأسماء الحسنى، وهي أسماء تختصّ به وحدَه، ولا تنطبق على سواه.

ثم إنّ الله (تعالى) هو مصدر الرّحمة المطلقة، التي توصف أنّها تسع كلّ شيء.

وأنَّ بين الله (تعالى) والإنسان علاقة، يمكن أن تشبَّه بعلاقة الأب العطوف والأم الرؤوم بأولادهما، بل علاقته (تعالى) بنا هي أعمق وأرحم وألطف وأحنّ من علاقة الأب والأم بالولد،

(١) الحسيني، عباس: مصابيح الجنان، ط١، قم، ٢٠٠٠م، ص٦٣٠.



أوَليست هذه الرحمة الأبويّة والأموميّة مصدرها الله (تعالى)، وهو الذي أودعها فيهما؟

أيّها العزيز

إنّ الله (تعالى) هو أصدق صديق لك، وأجمل جليس معك، وآنس أنيس لوحشة قلبك، وأحبّ حبيب لراحة نفسك؛ لأن الإنسان لا يملك قبال الدنيا الموحشة إلى ربّاً رؤوفاً، وإلهاً (متعاوناً)، يصفح، ويعفو، ويحلم، ويحنّ، ويشتاق إلى عباده...

ولمزيد من الإيضاح لهذه الصورة الحقيقيّة لله (تعالى)، أدعوك لمرافقتي ضمن الفقرات الأربع التالية:

الفقرة الأولى: يتحبّبُ إلينا بالنِّعم، ونعارضه بالذنوب

إنَّ من أجمل وأروع المشاهد التي تأخذ بمجامع القلوب، مشهد الإله القدير، الذي يملك مقاليد السموات والأرض، وهو يواجه إساءة عبده الفقير والضعيف والمسكين ـ ليس بالإمهال والتسامح والتجاوز فقط[1] وإنَّما أيضاً ـ بإسباغ النّعم، وإنزال الخير الكثير على عبده الطائش، الذي يتجرّأ على مواجهة سيّده الرحيم دون سبب، بل إنّ الأسباب كلّها تدعوه إلى عكس ذلك، من محبَّة الخالق، والتودّد إليه، وطاعته، وتقديم قرابين المودّة إليه وبين يديه. وإلى هذا العفو والصفح

(١) قال تعالى: ﴿... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (الأعراف: ١٥٦).

اللامتناهي، تشير كلمات أحد أعبَد أهل الأرض من الأوصياء والأئمّة، وهو عليّ بن الحسين، المعروف بزين العابدين عليه السلام، حيث يقول (في حديث له مع الله في وسط الليل):

«تَتَحَبَّبُ إِلَيْنا بِالنِّعَمِ وَنُعارِضُكَ بِالذُّنُوبِ، خَيْرُكَ إِلَيْنا نازِلٌ، وَشُرُّنا إِلَيْكَ صاعِدٌ، وَلَمْ يَزَلْ وَلا يَزالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ عَنّا بِعَمَلٍ قَبيحٍ، فَلا يَمْنَعُكَ ذلِكَ مِنْ أَنْ تَحُوطَنا بِنِعَمِكَ، وَتَتَفَضَّلَ عَلَيْنا بِآلائِكَ، فَسُبْحانَكَ! ما أَحْلَمَكَ وَأَعْظَمَكَ وَأَكْرَمَكَ، مُبْدِئاً وَمُعيداً، تَقَدَّسَتْ أَسْماؤُكَ وَجَلَّ ثَناؤُكَ، وَكَرُمَ صَنائِعُكَ وَفِعالُكَ»[1].

على أنّني لن أتجرّأ على شرح هذه الكلمات، ولكنّني جلّ ما ألتمس منك أيّها القارئ العزيز أن تقراها بعين قلبك عدّة مرّات، وتكثر من تردادها. ولا بأس أن تتأمّل في هذا الكلام الإلهيّ، الذي ورد عن ربّ العزّة (تبارك وتعالى) في الحديث القدسيّ.

حيث يقول تعالى:

«عَبْدي! ما أَنصفتني، أَذكرُكَ وتَنْسى ذِكْري، وأَدعُوكَ إلى عِبادتي وتَذْهب إلى غَيْري، وأَرْزقك مِنْ خَزائِني، وآمُرك لتتصدَّق لوجهي، فلا تُطِيعني. وأَفْتَحُ عليكَ أَبوابَ الرِّزق، وأَسْتقرضك من مالي، فتجبهني، وأُذهِب عنكَ البلاء، وأنت

(١) القُمّي، عبّاس: مفاتيح الجنان، ط٢، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ٢٠٠١م، ص٢٤٣.



مُعتكف على فِعْلِ الخطايا.. يابن آدم! ما يكون جوابك غداً إذا أجبتني؟»[1].

الفقرة الثانية: الله يشتاق إلى المذنبين

«إلهي، ما أقربك منّي وأبعدني عنك، وما أرأفك بي، فما الذي يحجبني عنك؟!».

لقد انبرت الرّحمة الإلهيّة في أبهى صورها، وأرقى مشاهدها، وأجمل تباشيرها، لتعبّر عن محبّة الله (تعالى) لعبده وتمحو ما قد يتصوّره البعض، من أنّ الله ينظر إلى المسيئين وعباده العاصين بعين الغضب والانتقام، وربّما يسوّق أحدنا لفكرة من هذا النوع، ويتبرّع نيابةً عن الله (تعالى) بإصدار أحكام التكفير والخروج عن الدين، والتوعّد بالويل والثبور، لكلّ من يظلم نفسه بمخالفة ربّه، فهل أنّ الله يعيش هذه (المشاعر) اتجاه هؤلاء، أم لا؟!

تفيدنا الروايات أنّ الله (تعالى) الذي يحب عباده لا يمكن أن ينظر إليهم إلاّ بعين الحبّ والرّحمة، بل إن الله يشتاق إلى عباده المذنبين، كي يعودوا إليه، ويؤوبوا إلى رحمته.

فالله في كل يوم وليلة وساعة يرسل ملائكته، الذين يبحثون عن عبدٍ من عباده، قرّر أن يعود إلى الله، ويلجأ إليه، ليجد أن الله بانتظاره[2]، بل هو في شوق إليه، ورغبة إلى لقائه وهذا ما خاطب الله (تعالى) به نبيّه داوود ﷺ، قائلاً:

---

(١) الشيرازي، حسن: كلمة الله، ط٣، بيروت، مؤسّسة الوفاء، ١٩٩٣، ص٥٣.

(٢) ورد عن الإمام الرضا ﷺ: «إن الله (تبارك وتعالى) يُنزل ملكاً إلى السماء كل=

«لله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضالّ الواجد، ومن الظّمآن الوارد»[1].

كما ذكر (تعالى) في كلامٍ إلى نبيه عيسى المسيح عليه السلام، قائلاً:

«يا عيسى! كم أُطيل النظر، وأُحسن الطلب، والقوم في غفلة لا يرجعون»[2].

وهو (تعالى) يقول ـ أيضاً ـ في الحديث القدسي:

«يا بن آدم، وحقّك عليّ، إنّي أُحبك، فبحقّك عليّ أحبّني»[3].

فهل ندرك عظمة هذه الدعوة، وحرارة هذا النداء، وقداسة هذا الإله؟!

وقد ورد في كلام آخر:

«لو علم المذبرون عنّي كيف اشتياقي إلى توبتهم، لماتوا شوقاً إليَّ، ولقُطّعَتْ أوصالهم»[4].

=ليلة في الثلث الأخير، وليلة الجمعة في أول الليل، فيأمره، فينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ يا طالب الخير أقبِل، يا طالب الشر أقصِر! فلا يزال ينادي بهذا حتى يطلع الفجر، فإذا طلع الفجر عاد إلى محلّه من ملكوت السماء». الطبرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، مشهد، نشر المرتضى، ١٩٨٢، ج٢، ص٣٨٦.

(١) ري شهري، محمدي: ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٥، ج١، ص٥٤١.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب: ط٤، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٩٩٠، ج٨، ص١٣١.

(٣) التبريزي، ميرزا جواد: السير إلى الله، ط١، بيروت، دار البلاغة، ١٩٩٠، ص٢٠٠.

(٤) المصدر السابق.

فيا لله، ما أعظم هذا الكلام وأعذبه، وما أشدّ «وطأته» على القلوب الواعية، التي يجب أن تنتفض عند سماعه، وتُسرع الخطى إلى الله، الذي يدعوها إليه، وينتظرها بشوقٍ ومحبّة.

وهذا المفهوم ساعدَني، أيها الحبيب، وأنا أقدّم إجابة - ولو قاصرة - عن سؤال: من هو الله؟

لتصبح الإجابة مستقرة في قلبي وقلبك، حتى لو لم أوفق في رسمها كاملة لك على صفحات رسالتي هذه.

الفقرة الثالثة: رحمة بلا حدود

إن الله (تعالى) يغفر ولا يبالي[1]، ورحمته الواسعة لا يملك أن يعبّر عنها أحد أو يصفها؛ لأنه بذلك يضع لها حدّاً، وهي رحمة بلا حدود، هكذا أرادها الله، وهكذا قدمها لنا. وأكثر من يحتاج إلى رحمة الله هم المسيئون وأهل المعاصي، الذين لا زالوا يديرون ظهورهم لله (تعالى).

فالرّحمة الإلهيّة أكثر ما تنتظر هؤلاء المساكين، المحرومين من ظهور النّور الإلهي فوق قلوبهم الصدئة.

ثم لا يطالك العجب أيها العزيز إذا عرفت أن رحمة الله (تعالى) يطمع بها حتى إبليس، فقد ورد في المأثور:

«إن لله رحمة يشرأبّ لها عنق إبليس»[2].

---

(١) ورد في حديث قدسي: «التوبة مبسوطة، حتى تبلغ النفس الحلقوم، قال آدم: يا ربّ زدني. قال تعالى: أغفر ولا أبالي». الشيرازي، مصدر سابق، ص٣٥٤.

(٢) «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته». راجع: المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ط٤، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٩٨٣، ج٧، ص٢٨٧.





فهل يمكن أن يشرأبّ عنق إبليس لرحمة الله، وأبقى أنا مخبّئاً عنقي، خجِلاً من نفسي، لا أستفيد من هذه اللطيفة الإلهية الكبرى؟!

أيطمع إبليس بمغفرة الله (تعالى)، وهو الذي يشارك كل مسيءٍ في إساءته، ولا أطمع أنا بالمغفرة والرحمة التي خلقها الله (تعالى) لأجلي.

واعلم أيها الحبيب ـ أيضاً ـ أن الله لم ينزل الرحمة ويطلب منا الاستفادة منها فقط بل إنه (تبارك وتعالى) اعتبر أن من أكبر الخطايا والذنوب، اليأس من روح الله، وعدم الاطمئنان لرحمة الله (تعالى)، وقد عبّر القرآن اكريم عن (انزعاجه) من المذنبين، لا لكثرة ذنوبهم، بل ليأسهم من أن تطالهم الرحمة الإلهية، ووصولهم إلى حالة القنوط، حيث يقول (تعالى):

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

وإنني أدعوك يا أخي أن تقرأ هذه الآية، وتتأمل مشاهد الرحمة فيها، وأنا أشير إلى ما ذكره العلماء من تضمنها لستة مشاهد:

المشهد الأول:

المفروض أن الله (تعالى) يخاطب في هذه الآية قوماً من المذنبين والعاصين، ولكنك تراه يبدأهم بخطاب: ﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾،



(١) سورة الزمر: ٥٣.



مع ما يعنيه هذا التعبير من الرأفة والرحمة واللّطف والشفقة بخلقه، حتى المذنبين منهم، ولم يقل: «يا أيها العصاة».

المشهد الثاني:

قال (تعالى): ﴿أَسْرَفُوا﴾، وفي هذه العبارة تخفيف من حدّة الخطأ الذي ارتكبوه، ورفقٌ بهم، كأنه (تعالى) لا يريدهم أن يستعظموا خطأهم أمام عظمة رحمة الله وعفوه.

المشهد الثالث:

قال (تعالى): ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾، أي لا تقطعوا الأمل، وتلقوا بأنفسكم في غياهب اليأس، وهذه دعوة صريحة إلى حرمة اليأس من مغفرة الله (تعالى).

المشهد الرابع:

قال (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ﴾، وهذا تأكيد ليس فقط على ضرورة الطمع برحمة الله، بل إشارة إلى عاقبة هذا الطمع، وهو المغفرة الحتميّة، والرضا الإلهي على العبد.

المشهد الخامس:

قال (تعالى): ﴿جَمِيعًا﴾، أي جميع الذنوب، ولم يخص رحمته ومغفرته بنوع من الخطايا دون نوع آخر.

المشهد السادس:

قال (تعالى) مرة أخرى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، وفيه إعادة تذكير بأن الرحمة والمغفرة هما صفتان لله (تعالى)، لا تنفكان عنه.



فليدأب المحتاجون على مناجاة الله، وطلب معونته، فإنه ينتظر عباده ليقضي حاجاتهم، ويغفر خطاياهم.

الفقرة الرابعة: السيئات تصبح حسنات

لقد عبّرت الرّحمة الإلهية عن نفسها بطرقٍ شتّى، وقدّمت عروضاً أدهشت العقول، وخطفت القلوب، وأباحت الجوائز والعطايا والمواهب الكريمة، حتى للذين يتجرأون على ربهم، ويعارضونه بالعصيان، ويطعنون بألوهيته ويشكّون بربوبيته.

حتى وصل الأمر بهذه الرحمة اللامحدودة، أن تقدم وعداً خاصاً بأهل المعاصي والذنوب، يقضي بتحويل كلّ سيئاتهم وخطاياهم إلى حسنات وأعمالٍ طيبة، يلقون جزاءها إذا تابوا إلى الله، وأعلنوا العودة إلى خالقهم الحبيب، والطبيب، والقريب.

هذا فضلاً عن أنه (تعالى) سيمحو هذه السيئات ويُنسيها لكل من عرفها من الملائكة، وحتى الجوارح التي اقترفت هذه الذنوب، حيث يقول (تعالى):

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

---

(١) سورة الفرقان: ٧٠.



في ختام هذه الفقرة اسمع منّي هذه الحادثة، وازدد بما قلته لك قناعة:

ورد في بعض الأخبار أنه لما أُنزلت آية تحريم الخمر، أمر رسول الله ﷺ أن ينادي المنادي بأن لا يشرب أحدٌ الخمر. وفي يوم من الأيام التقى رسول الله ﷺ في طريقه برجل مسلم، يحمل بيده زجاجة خمر، فلما رأى رسول الله ﷺ اضطرب خوفاً، وقال:

«إلهي تُبت إليك، لا تفضحني أمام نبيّك». ولما اقترب منه الرسول ﷺ سأله عما في يده، فقال:

«إنه خلّ». فطلب منه الرسول ﷺ أن يصبّ قليلاً منه في يده، فلما صبَّه، فإذا هو ـ بأمر من الله تعالى ـ قد انقلب خلاً بالفعل، فبكى الرجل، وقال: «يا رسول الله ما كان خلاً بل خمراً، ولكني تبتُ، وسألتُ الله أن لا يفضحني أمامك». فقال ﷺ:

«نعم، من تاب بدّل الله سيئاته إلى حسنات: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾»[1].

وقفة أخيرة:

هنا، ـ أيها الحبيب ـ، وبعد هذا الصفح العظيم، والعفو الكريم، والرحمة الواسعة، والتحنّن الآلهي الذي حدّثتك عنه،

(١) السبزواري: مصابيح القلوب.

اسمح لي أن أفرح قليلاً وأنا أسمع قلبك يسألك بشغفٍ وشوقٍ عن ساعة رحيلك إلى ربك، وعودتك إلى مكان خلاصك الوحيد، حيث تنعم بهذه الرحمة، وهذا الرّضا والرّضوان.

اسمح لي أن أغبط توبتك التي ستحوّل ذنوبك إلى حسنات، والتي بفضلها سيزداد قربك من ربك، وهذه هي بداية الطريق.

«إلهي... ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحوّلاً...»[1].

---

(١) الحسيني، مصدر سابق، ص٦٣٣.



حكمة العقاب الإلهي

بعد كل ما ذكرت لك، ووصفت، من سعة الرحمة، وكثير العفو والحِلم، وعظيم التفضّل من الله على عباده، كيف يمكن تفسير ما هو معروف، من أن ثمّة عقاباً عظيماً ينتظر الناس يوم القيامة، وأن النار التي أُعدّت لهؤلاء هي بحيث لا يحتمل المرء أن يسمع عن قسوتها، فضلاً عن أن ينظر إليها، أو يخلد فيها؟!

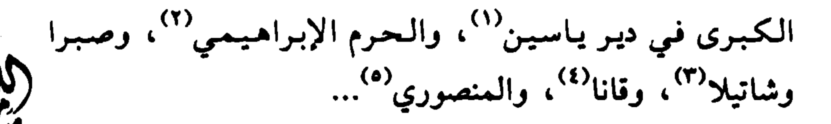
هل ثمة تناقض بين الحديث عن رحمة الله الكبرى، والحديث عن العقاب؟

اعلم، أخي العزيز..

أن الحديث عن العقاب الإلهي إنما هو حديث عن العدل الآلهي، فلا يمكن أن نتصوّر إلهاً عادلاً دون أن نتصوّره وهو يجزي الصالحين، ويعاقب المفسدين في الأرض... ولا يمكن أن نتصوّر كل الذين شاركوا عل مرّ التاريخ في قتل الأبرياء وظلم الضعفاء وهم يدخلون الجنّة، جنباً إلى جنب مع المظلومين والمقهورين...



تصوّر أن يُغضّ الطرف، ويُعفى عن مرتكبي جرائم الحرب



الكبرى في دير ياسين[١]، والحرم الإبراهيمي[٢]، وصبرا وشاتيلا[٣]، وقانا[٤]، والمنصوري[٥]...

وتصوّر ـ أيضاً ـ أن يقف الأبطال والصالحون، الذين ضحّوا واستشهدوا في سبيل أمتهم وأوطانهم، في لبنان وفلسطين...، ليكون جزاؤهم كجزاء غيرهم، من قاتليهم ومعذبيهم، على مدى عقود خلت.

إن المستضعفين في الأرض على مرّ التاريخ، ينتظرون اليوم الذي ينتصرون فيه على المستكبرين، ويطلبون ذلك فقط من الله، فهل سيخيب الله أملهم فيه؟!

وهل سيسمح بعذابهم مرتين؟ مرةً عندما ظُلموا وقُهروا في الدنيا، وأخرى عندما جعل رحمته تشمل قاتليهم وقاهريهم وظالميهم؟! إنّ عدل الله يأبى ذلك، ورحمته بالمساكين تأبى أن يرحم الظالمين والمجرمين.

---

(١) مجزرة كبيرة ارتكبها العدو الإسرائيلي بحق الشعب الفلسطيني في أبريل ١٩٤٨م. ذهب ضحيّتها ١٥٠ شهيداً مدنياً.

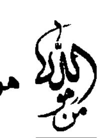
(٢) مجزرة ارتكبها مستوطن يهودي متطرّف بحق عشرات الفلسطينيين داخل الحرم الإبراهيمي.

(٣) مجزرة ارتكبها العدو الإسرائيلي في ١٦ أيلول ١٩٨٢م. بقيادة وزير الحرب آنذاك أريل شارون بحق اللاجئين الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا، وقد ذهب ضحيتها قرابة ٨٠٠ ضحية بريئة. وقد اعتبرت من مجازر الحرب الكبرى.

(٤) مجزرة ارتكبها العدو الإسرائيلي بحق المدنيين اللبنانيين الملتجئين داخل مقر للأمم المتحدة في قانا وقد ذهب ضحيّتها ١٠٦ شهداء، في أبريل ١٩٩٦.

(٥) مجزرة ارتكبها العدو الإسرائيلي بحق عائلة لبنانية داخل سيارة إسعاف على مدخل بلدة المنصوري الجنوبية في أبريل ١٩٩٦.





لذلك إعلم ـ يا أخي ـ أن العقاب يوم القيامة هو ضرورة، هو رادع للإنسان عن الخطأ والعصيان والانحراف...

تصوّر أن يقول الله للناس: «إن أحسنتم فلكم الجنّة، وإن أسأتم فلكم الجنّة أيضاً»!

فالجنة والنعيم للمحسن، والنار والجحيم للمسيء، هذه سنة إلهية، جعلها الله حافزاً نحو الطاعة ورادعاً عن العصيان.

وهنا ينبغي أن لا نفرّق بين الذنب الكبير، والذنب الصغير؛ لأنه من شأن ذلك أن نتعوّد على الخطأ، ونستقر على الذنوب. كما أن البداية قد تكون مع الذنب الصغير، ولكن النهاية ستكون بالوقوع في ذنوب كبيرة مهلِكة. ولذلك، ينبغي أن لا تفكّر في صِغر المعصية، أو كبرها، بل فكّر في عظمة الخالق الذي تعصيه...

فتأمّل في دقّة هذا المطلب، ولا تنسَ أن تجعل قلبك يخفق دائماً بين الخوف والرجاء، الخوف من عقاب الله وغضبه، والرجاء لرحمته ورضاه.

قال لقمان الحكيم لابنه:

«خف الله (عزّوجلّ) خيفةً لو جئته ببرِّ الثّقلين لعذَّبك. وارجُ الله، رجاءَ لو جئتَه بذنوب الثقلين لرحمك»[1].

---

(1) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ط١، بيروت، دار التعارف، ١٩٩٠، ج٢، ص٧٣.



هل الله موجود؟

* الله هو الدليل
* شواهد لمن ينقصه الدليل
* تأمّل في الشمس
* تأمّل النظام في جسم الإنسان
* تأمّل في إحياء الأرض الميّتة
* تأمّل في التحدّي القرآني



اللَّه هو الدليل

أيها القارئ العزيز..

هنا عليّ أن أعتذر أولاً إلى الله، وإليك ـ أيضاً ـ قبل أن أجيب عن سؤال «هل الله موجود؟»، كما أنه قد لا يليق هذا البحث بما قدّمناه في الفصل الأول من هذه الرسالة.

ولكن عذري في طرح هذا المبحث هو علمي بحاجة بعض إخواني وأخواتي من طلاب الجامعات، والذين تخاطبهم هذه الرسالة، ليتزوّدوا من بعض الأدلّة التي تساعدهم عند الحاجة إليها، وتُسعفهم كلما هجم على فطرتهم البيضاء سواد الليل، أو كلما تشابهت عليهم الأمور.

فأقول:

اعلم أيها الأخ الخليل، أن الله (تعالى) الذي وصفتُه لك مستغنٍ عن الدليل، بل هو دليل كل شيء، وهو خالق كل شيء.

والله يشير إليه كل شيء، يشير إليه الليل والقمر، والصبح والشجر، يشير إليه الماء والسماء، والهواء والفضاء، تشير إليه الجبال، والتلال...

تصوّرا أن الله (تعالى) بكل كمالاته الموصوفة نضطر أن



نستدلّ عليه أحياناً بمخلوقاته الضعيفة، التي وُجدت بأمر منه، وقرار من لدنه.

تصوّرا أن يصبح الاستدلال معكوساً وهذا ما يشير إليه الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض أدعيته، حيث يقول:

«كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ؟!

أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لَكَ؟!»[1].

أيُعقل أن يكون وجود الشمس، أو القمر، أو الإنسان، أو النبات، أكثر ظهوراً وحضوراً من الإلٰه الذي خلق هذه الأشياء لنستدلّ على وجوده ثم هل الشجرة تدلّ على وجود الله أو الإنسان أو الجبال، . . . وهل لهذه الوجودات من الظهور والوضوح والإشراق أكثر من الله الذي أعطاها ووهبها هذا الظهور وذاك الإشراق؟!

نعم أيها البصير، إن العين لا تلاحظ هذا النور الساطع، هي عين يشوبها العمى الذي يحجب عنها رؤية الحق ونور الحقيقة...

ثم يقول الإمام عليه السلام في نفس الموضع:

«مَتى غِبْتَ حَتَّى تَحْتاجَ إِلى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ!

وَمَتى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟!

(١) القمي، مصدر سابق، ص٣٥٥.



عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقِيباً...»[1].

السمكة تسأل عن حقيقة الماء

لقد ذكر بعضهم حكاية مؤثرة، تعبّر عن مدى قرب الله (تعالى) منّا جميعاً، ومع ذلك نسأل عنه، وتفتش عليه:

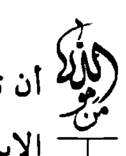
جلس صياد ذات مرة فوق الشاطئ وأخذ يحاور البحر شأن كل من يجالسه، وقال (من جملة ما قال): ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وإذا بسمكة في بطن الماء تسمع كلامه، فتقول: الماء! الماء! ما هو الماء؟ كثيراً ما يتحدّثون عن الماء، ويقولون إنه إكسير الحياة. فما هو هذا الماء؟!

وبينما هي كذلك، إذا بموج البحر الذي كان هادئاً، يعلو ويرتفع ويموج، ويلفظ بقوة تلك السمكة إلى الشاطئ، فعندما تلفحها حرارة رماله وتصعقها الشمس، تمدّ لسانها وتقول: «الآن، الآن عرفت ما هو الماء».

تصوّر معي ـ أيها العزيز ـ هذا المشهد، وخذ منه ما تشاء عبرة لنفسك، فالسمكة (التي يكوّن الماء سرّ وجودها، وحياتها، وبقائها) عميت عينها عنه ولم تره، ولم تشعر به، وهو يحيط بها من كل جانب.

فالله أيها العزيز، هو بالنسبة لنا كالماء بالنسبة إلى السمكة، يحيط بنا من كلّ جانب، وإن تاهت قلوبنا وعقولنا عنه.

(١) م.ن.، ص٣٥٥.



فتعال معي ـ يا صديقي ـ نتذوّق وجود الله وحضوره، قبل أن تلفظنا أمواج الموت إلى حيث لا تنفع حينها المعرفة ولا الإيمان.

اقطع عن صدرك الهواء دقيقة واحدة، لا أكثر، وتذكّر عندها من هو الله، وتأمّل في وجوده.

«... انْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هذِهِ الْبِحَارِ، وَكَثْرَةِ هذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هذِهِ الْقِلاَلِ (رؤوس الجبال)، وَتَفَرُّقِ هذِهِ اللُّغَاتِ، وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالوَيْلُ لِمَنْ جَحَدَ الْمُقَدِّرَ، وَأَنْكَرَ الْمُدَبِّرَ...»[1].

المضطر لا يلجأ إلا إلى الله

لقد كان الله ولا زال وسيبقى الحقيقة، التي قد لا نشعر بها عندما ننعم بالراحة والأمن والاطمئنان، رغم أنه مصدر ذلك كله، ولكن عندما يفاجئنا الخطر ويداهمنا الهلاك لا نجد إلا الله لنخاطبه، ونناديه، ونناشده. كما ناشده روّاد جهاز (Appolo 13) الذين كانوا يقومون برحلة استكشاف إلى القمر، عام ١٩٧٠م.، حيث تعطّل بهم الجهاز، وحاولوا النجاة بكل الوسائل، فلم يفلحوا، عندها وصل صوت استغاثتهم بالله إلى أسماع أهل الأرض. وقد اضطر انفجار في خزان الأوكسجين

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٣٧٦.

إلى إعادة الرحلة بصورة طارئة إلى الأرض، بعد بضع دورات في مدار القمر[1].

ومشهد اللجوء إلى الله عند الضرورة كثيراً ما يتكرّر، حتى من الملحدين الذين عاشوا سنوات طويلة من الإنكار، حيث تراهم يعلّقون آمالهم على الله، وينادونه، ويستغيثون به، فيكون (تبارك وتعالى) لهم مجيباً، ولحاجاتهم قاضياً. ولكنهم سرعان ما ينسون أن الله (تعالى) قد أنقذهم وأخذ بأيديهم، فيديرون ظهورهم من جديد، ويتيهون في دنياهم. يقول الله (تعالى):

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[2].

نعم فالإنسان في لحظة الخطر وأوقات الضرر ينادي ربه، ويعلّق الآمال على إجابته، وعندما تحصل هذه الإجابة، ويحقق الله النجاة إلى بر الأمان يعود الإنسان أدراجه وسالف عهده في نسيان الخالق ونكران نِعَمِهِ تبارك وتعالى.

---

(١) جريدة السفير، عدد ٩٣٧٠، الاثنين ٩ كانون الثاني ٢٠٠٢.

(٢) سورة الإسراء: ٦٧.





شواهد لمن ينقصه الدليل

بعد هذا العرض المتقدّم، والذي يكفي للدخول إلى القلوب النقيّة والسليمة، لا بدّ من إضافة كلام آخر ينحو منحى الاستدلال العقلي على وجود إله منظّم، وقادر، وعادل، ويملك مقاليد هذا الكون، ويقف خلف أسراره العميقة التي لا حصر لها.

هذا الاستدلال هو رسالة لكل من يخونه قلبه فلا يرى الله، ودعوة له للرجوع إلى عقله، الذي يملك أن يستعيد وعي قلبه، فيرى ويبصر الحق (تبارك وتعالى).

لقد ذكر العلماء والفلاسفة والمتكلّمون أدلّة كثيرة على وجود الله، لا أجد مناسبة لذكرها جميعاً، ولذا فقد اخترت أهمها وأشهرها وأكثرها وضوحاً وبداهة، وأقربها إلى مدارك جيل الشباب، الذي إليه يتوجّه هذا الخطاب، وهو ما يسمى ببرهان النُّظم.

فما هو هذا البرهان؟ وما هي شواهده؟

إن توضيح برهان النُّظم يتوقف على ذكر مقدّمتين واضحتين، نخلص بعدهما إلى نتيجة.





المقدمة الأولى: الكون منظَّم

إن التأمّل في العالم وأحواله وأسراره، من فضاء، وجبال، وبحارٍ وبراري، وما فيه من إنسان، وحيوان، و... كل ذلك يشير إلى وجود نظام في هذا الكون.

المقدمة الثانية: كل منظَّم يحتاج إلى منظِّم

كل نظام يحتاج إلى جهة تقف خلفه، وهي جهة لا بدّ أن تملك القدرة والمعرفة؛ القدرة لأنها ضرورية لإتمام مهام صعبة، كمهام تكوين الكون والإنسان والحيوان... والمعرفة؛ لأن القدرة تفتقر إلى علم يوجهها لتكوين كل هذه الأشياء الدقيقة الصنع، والمدهشة، كما سنوضح بعد قليل.

النتيجة: الكون يحتاج إلى منظِّم

هذا العالم له منظّم، وهو الله (تبارك وتعالى)، وبعبارة أخرى، إن وجود النظام في الكون لا يمكن أن يوجد مصادفةً، بل لا بدّ من إلٰه قادر وعالم أوجده. هذا الإله القادر لا بدّ أنه الله (تبارك وتعالى). وهذه القدرة والمعرفة اللتان تقفان خلف هذا النظام تشيران ـ أيضاً ـ إلى الله بكل وضوح.

وهنا ـ أيها العزيز ـ قبل أن تستعجل الحكم على هذا الدليل، فلعلّك قصَّرتَ في التأمّل فيه، أو قصّرتُ في توضيحه لك، أدعوك أن تتأمّل معي في الشواهد التالية:



تأمَّل في الشمس

تأمّل في الشمس، أميرة الدنيا ووجهها، ونورها، وضياها، وصبحها. وهي أكبر من الأرض بـ(١٠٩) مرات، وقطرها يقرب من مليون وأربعمائة ألف كيلومتر، وتبلغ الفاصلة بيننا وبينها (١٥٠) مليون كلم تقريباً، وإنّ نورها الذي يقطع طريقه بسرعة (٣٠٠) ألف كلم في الثانية، يصل إلينا خلال (٨) دقائق تقريباً، ويقدّر العلماء عمر الشمس بـ(٥) مليارات سنة.

أما حرارة سطح الشمس فتعادل (٦٠٠٠) سنتيغراد تقريباً، وهي حرارة لا تحصل على سطح الأرض في أي مختبر أو فرن أبداً.

وأما حرارة عمقها فتبلغ (٢) مليون درجة سنتيغراد، وتندلع من سطح الشمس ألسنة النيران، ويبلغ ارتفاعها أحياناً (١٦٩) ألف كلم.

إن هذا النجم السماوي والإلٰهي الكبير له تأثير عظيم على حياة الإنسان، فجاذبيتها تمكّن الأرض من الاستمرار في الدوران في مدارها الثابت، وإلاّ سقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء اللامتناهي.





وحرارتها تساعد على نموّ النباتات وديمومة حركة وحياة الحيوانات.

ونور الشمس الأبيض والذي هو نتاج سبعة ألوان ممتزجة، هذا النور يساعد النباتات، حيث يمتصّ غاز ثاني أوكسيد الكربون (CO_2) من الجوّ، ويطرح في المقابل غاز الأوكسجين (O_2)، الذي يعطينا الحياة، فهو يساعد النباتات في نموّها بسحب ثاني أوكسيد الكربون (CO_2).

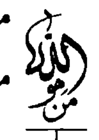
إن الأشعة فوق البنفسجية (والتي هي من إشعاعات الشمس) تفيد في القضاء على (٩٠٪) من الجراثيم، وتقوم بدور منع التعفّن.

إن هذه الآيات وغيرها كثير تشير بوضوح إلى دقّة الصّنع والتدبير والنظام في العالم، وهو من النوع الذي لا يقدر على تدبيره الإنسان الضعيف.

وهنا يُطرح السؤال من جديد: من يقف خلف هذا النظام في العالم سوى الله (تبارك وتعالى)، وهل يمكن أن يوجد كل ذلك بمحض المصادفة؟!

إذا دخلت ذات مرّة إلى الصف، ونظرت إلى اللّوح، فوجدت برهاناً رياضياً يبرهن على أن مجموع زوايا المثلث يساوي (١٨٠) درجة، أو أن مجموع زوايا المثلث تساوي





مجموع زاويتين قائمتين، أو أن محيط الدائرة يساوي قطرها مضروباً بالعدد الثابت (π)[*]:

($P = 2\pi . R$) أو ($P = \pi . d$)

فإنك لن تشكّ طرفة عين بأن أحد الطلاب المحصّلين قد كتب هذا البرهان، بل تعتبر هذا الأمر بديهياً، لأن هذا الحل المنطقي الموجود على اللوح يستحيل أن يوجد بمفرده.

كما أنك لن تشكّ وأنت تقرأ كتاب «القانون في الطبّ» لابن سينا[١]، أو كتاب «نهج البلاغة» للإمام عليّ عليه السلام، أو كتاب «المنطق» لأرسطو[٢]، بأن هذا الكتاب وضعَه عالم متقِن، احتاج وقتاً طويلاً، وبذل جهداً كبيراً، لإنجاز هذا الكتاب المهم.

«... وهل يكون بناء من غير بانٍ، أو جناية من غير جانٍ؟!...»[٣].

نيوتن يعرف الله

لقد صمّم «نيوتن»[٤] نموذجاً للمجموعة الشمسية، وصادف

(*) $\Pi = 3.1416..$

(١) ابن سينا، حسين بن عبد الله، «الشيخ الرئيس»، (Avicenna) (٩٨٠م/ ٣٧٠هـ - ١٠٧٣م/ ٤٢٧هـ) من أكبر الفلاسفة المسلمين الذين برزوا في الفلسفة والطبيعيات والطب، ومن الذين دفعوا عجلة العلم إلى الأمام. له حوالي ٢٧٠ مؤلفاً في علوم مختلفة.

(٢) أرسطو طاليس، Aristotle، المعلم الأول (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م).

(٣) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٣٧٧.

(٤) إسحاق نيوتن: Issac Newton (١٦٤٢م - ١٧٢٧م). عالم رياضيات وفيزياء، وفلك، ومفكر إنكليزي، مؤسس نظرية المعرفة النسبية.



أن دخل إلى مختبره أحد أصدقائه من الماديّين، الذين ينكرون وجود خالق للكون، وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث، أضاء نيوتن مجموعته الشمسية، التي راحت تتحرك بشكل أدهش هذا الصديق المادي، فقال لينوتن: هذا عمل بديع، هل صنعته أنت أو غيرك؟

فقال نيوتن: لم يصنعه أحد لقد وجد مصادفةً.

فما كان من هذا الصديق إلا أن سخِر من هذا الجواب، وقال غاضباً: ليس بوسع الإنسان العادي أن يصنع مثل هذه الأجهزة ما لم يكن متخصّصاً، فكيف تقول إنما وُجدت مصادفة؟!

فأجابه نيوتن: عندما أدّعي أن هذه المجموعة الشمسية التي تعمل بالكهرباء قد وُجدت بالمصادفة فإنك تغضب، لكنك تعتبر هذا العالم الموجود بكل نظامه، وهذه المجرّات بدقتها، والأرض وحركاتها المختلفة كلها صدفة!! فكيف يمكن أن يوجد هذا النظام بالمصادفة، وهل هذا معقول؟!

يقال إن صاحبه أصبح بعد هذه الحادثة موحدّاً مؤمناً بالله (تعالى). فمنظومة نيوتن أيقظت عقله، وتراجع عن عناده، وأيقن أن للعالم خالقاً ومدبّراً[1].

تأمل يا صاحبي في هذه الحادثة، وخذ منها حكمة بالغة، قبل فوات الأوان.

---

(١) نقلاً عن مظاهري، المعارف والعقائد الإسلامية، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار المحجّة البيضاء، ١٩٩٣، ص١٢٨.



تأمل النظام في جسم الإنسان

إن جسم الإنسان هو شاهد كبير على عظمة الخالق وحكمته ومعرفته. وهو شاهد على النظام التام، والأتمّ في عالم الوجود، ولا يسعك سوى التأمّل، والتعرّف على بعض أسرار هذا الجسم، حتى ترى عجباً، فأنت أمام مشهد متكامل من الدقّة والنّظام، والخَلق السّويّ والحسَن، كما عبّر القرآن الكريم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[1].

ولأن الأسرار كثيرةٌ كثيرة، وعميقةٌ عميقة، توقف معي يا أخي عند مشهد يتكرّر معك كل يوم:

عندما تضع الطعام في فمك، تمضغه الأسنان، ويتحرّك اللّسان، ولولاه لم يسهل مضغ الطعام، ثم تبدأ الغدد اللّعابية (Salivary Gland) بالترشّح من تحت اللّسان؛ لترطيب الطعام وإعداده للبلع والهضم، ثم يبدأ اللسان المزماري (Epiglottis) عمله، فيسدّ مجرى التنفس؛ لئلا ينفذ فيه الطعام، الذي لو دخل إلى الحنجرة لمات الإنسان اختناقاً، وعندما يدخل الطعام

(١) سورة التين: ٤.

في المعدة فإنه يُهضم جيداً، والقوة الدافعة فيها تدفع الطعام إلى الأمعاء الاثني عشري (Duodenum)، والزغبات الدقيقة (Intestinal Villi) الموجودة في الأمعاء وفي الاثني عشري تمتص جوهر الطعام والغذاء منه، وتدفع الباقي بصورة إدرار إلى الخارج. وعندما ينفذ جوهر الطعام إلى الدم، توصله كريات الدم الحمراء إلى الخلايا التي تعيش بسبب هذا الغذاء والهواء، وإلا لماتت، ومعها يموت الإنسان، فالكريات الحمراء توصل الأوكسجين (O_2) أيضاً إلى الخلايا، وتأخذ ثاني أوكسيد الكربون (CO_2).

ماذا بعد؟!

لن أحدّث عن الكريات البيضاء، فهو حديث يطول عن جنود الجسم، وحماة الإنسان من خطر الميكروبات التي تدخل الجسم عن طريق الماء، والهواء، والطعام، فتتصدى لها هذه الكريات، وتستبسل دون جسم الإنسان، وتدافع عنه حتى الرمق الأخير.

هذه ـ أيها العزيز ـ إشارة مختصرة جداً إلى بعض جوانب النظام في جسم الإنسان، فما بالك لو تحدثنا عن القلب ووظائفه، أو الدماغ، أو العين، أو الجهاز التنفسي، أو الجهاز العصبي، أو العظام ودورها في انتصاب جسم الإنسان، أو...

وهذا كله يحتاج إلى تأمل، ويفرض مزيداً من التفكّر الذي يوصل حتماً إلى الاعتقاد بوجود نظام تامّ، يقف خلفه منظّم، عالم، وقادر.





معبودات أوهن من ذبابة!

من الغريب ـ أخي الحبيب ـ أن الإنسان الذي يقف في أعلى مراتب العجز أمام الله (تعالى) يعاند ويكابر أحياناً، وهو يتطلّع إلى كل الحقائق والآيات الباهرات، وقد قدّم القرآن الكريم تحدياً رائعاً لمن يتأمّل فيه، وبلغةٍ علمية واضحة، حيث يقول:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ. . .﴾[1].

أيها الناس، إن كنتم غير معجبين بروعة الخلق الآلهي، أو كنتم تستخفون بكل هذه الآيات التي خلقها الله، وفي طليعتها الإنسان، فهذا خلق الله، فلماذا لا تقدمون نموذجاً في الخلق أكثر دقةً وعظمة وروعة؟!!

ولماذا لا يملك من تدعون من دون الله أن يعرضوا إمكاناتهم وقدرتهم؛ حتى نسلّم لهم الأمر، ونؤمن بقدرتهم من دون الله؟!

ولكن الله يجيب عنهم، لأنهم لا يملكون الجواب، ويذكّرهم من جديد بعجزهم، ووهن قوتهم أمام الله، فيقول (تبارك تعالى):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[2].

---

(١) سورة لقمان: ١١.
(٢) سورة الحج: ٧٣.

لقد ذُكر أن عبدة الأوثان من قريش كانوا قد نصبوا أوثانهم حول الكعبة، وأغرقوها بالمسك والعنبر، وأحياناً بالزعفران والعسل، وطافوا حولها وهم يردّدون:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلاّ شريك هو لك تملكه وما ملك».

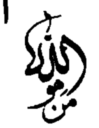
فقد جعلوا هذه الموجودات التافهة شريكة لله الواحد الأحد، وهم يرون الذباب يحوم عليها، ويسرق منها العسل والزعفران والمسك، دون أن يستطيعوا إعادة ما سلب منها[1]!

أجل، لو اجتمعت الأمّة كلّها، بعلمائها ومفكّريها ومبدعيها ومخترعيها، لما استطاعوا خلق ذبابة. فالعجب كيف أن الإنسان ينسى وهن هؤلاء وضعفهم أمام عظمة خالق السموات والأرض وما فيهن وما بينهن؟!

فتأمّل دقّة هذا التحدّي بأضعف المخلوقات، ومدى عجز الإنسان عن الخلق والإيجاد، الذي هو بمشيئة الله (تعالى) وحده وإرادته وحده، فهذه الحشرة على صغر جسمها إلا أنها في غاية الروعة. فلو نظرنا إلى نشاطها البيولوجي بدقّة، لرأينا بناء مخ الذبابة، وشبكة أعصابها، وجهاز هضمها، كل ذلك يدلّ على دقّة في الخلق، لا يرقى إليها أحد.

---

(١) الشيرازي، ناصر مكارم: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، بيروت، مؤسسة البعثة، ١٩٩٢، ج١٠، ص٣٥.



الإمام علي عليه السلام يصف روعة خلق النملة

«... انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها، لا تكاد تُنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبّت على أرضها، وصبّت على رزقها، تنقل الحبّة إلى جحرها، وتعدها في مستقرّها. تجمع في حرّها لبردها، وفي ورودها لصدرها. مكفولة برزقها مرزوقة بوفقها. لا يغفلها المنان، ولا يحرمها الديّان ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس (الجامد) .ولو فكَّرتَ في مجاري أكلها في علوّها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها (مقاطع الأضلاع) وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، ولقيت من وصفها تعباً ...ولو ضَربتَ في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته، ما دلّتك الدلالة إلّا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء...»[١].

حقاً إنه لكلام جميل ذو معنى جليل فتأمل أيها الباحث عن الدليل، ولا تستبدل الكثير بالقليل...

هل الاستنساخ هو نوع من الخلق؟

لقد وقع الكلام منذ سنوات خلت حول الاستنساخ، وظن من ظن أن فيه تحدياً للإرادة الإلهية، وعلواً فوق سلطته ونواميسه، وخاف من خاف من أن يحلّ محلّ الله، ولكنه وهمٌ مدفوع، وظنّ مدفوع، لا يقع فيه من عرف عظمة الخالق وعجز المخلوق.

---

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص١١٧.



فماذا استنسخ المستنسخون؟ وهل يقدرون إلا أن يشتغلوا بما أباح لهم الله؟! وهل يملكون إلا أن يستخدموا الخلايا التي وهبها الله الحياة، التي لو استرجعها لتوقف عمل المستنسخين؟!

فالاستنساخ، والمصطلح البيولوجي هو التنسيل (Clonning/ Clonage) شائع في النباتات، حيث يمكن تكوين نبات بالغ بدءاً من فرع شجري، أو من ورقة نباتية، أو...

وأما في الحيوان، فهو أخذ خلية جسدية من كائن حيّ تحتوي على كافة المعلومات الوراثية، وزرعها في بويضة مفرغة من مورثاتها، ليأتي المخلوق الجديد مطابقاً تماماً للأصل، أي الكائن الأول الذي أخذت منه الخلية. وقد نجحت أول تجربة استنساخ حيوانية في (٥) تموز ١٩٩٦م. حين ولدت النعجة التي أسميت (Dolly) والتي ماتت عام ٢٠٠٣. فهذه التجربة لم تخلق قانوناً جديداً ولم تصنع سنة جديدة لتكون عملية خلق جديدة تتحدّى قدرة الله، ولكنها اكتشفت بعض أسرار الجسد الإنساني.

أقول هذا، بقطع النظر عن الموقف الأخلاقي، أو الإنساني، أو الديني من هذا التصرف، فسواء أجزناه أو منعناه، فإن هذا العمل لا يتم تحت عنوان التحدّي لله (تعالى) كما فهمه البعض؛ لأن الله يهب الحياة التي يفتقر إليها هذا العمل، بل يفتقر إليها المخطّطون والمباشرون له، ولو حرمهم الله (تعالى) من هذه الحياة لحظة واحدة لماتوا من فورهم.



تأمّل في إحياء الأرض الميّتة

الحياة ليست للإنسان وحده، فالكون كله يعيش مظاهر الحياة، وهنا سنقف قليلاً عند الأرض الميّتة التي أحياها الله بقدرته، وهو القائل:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[1].

فمن أعطى الحياة للنبات؟

البذرة الميّتة التي نضعها في التراب كيف تحيا؟

كيف يمنح الميت الحياة لنفسه؟

كيف تتحوّل البذرة إلى شجرة عظيمة؟

كل هذه الأسئلة ـ وغيرها كثير ـ تجيب عنها قدرة الله، التي منحت الحياة للأرض الميّتة، وأطلقت فيها الحياة، وفجّرت فيها العيون وأخرجت الزرع:

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[2].

(١) سورة يس: ٣٣.
(٢) سورة يس: ٣٥.

فيد الله حاضرة في كل ذلك، تعطي الحياة وتهب الوجود إلى العدم المفتقر.

تأمل من جديد ـ أيها الأخ العزيز ـ واعلم أن عقلك وقلبك يناديانك باستمرار، مع كل محطة في هذه الرسالة لتذكر الله، وتتذكر قدرته وحضوره، في كل آيات حياتك وفصول دنياك.

بعد هذا العرض المختصر جداً لبعض أسرار الوجود، نستدل على وجود نظام تام وشامل، وبالتالي وجود منظم عالم وقادر، هو الله.

﴿. . . رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

فتدبّر ـ أيها العزيز ـ وسلّم أمرك لله (تبارك وتعالى) فهو الذي أوجدك، وضع ثقتك به، فإنه عند حسن ظن عبده به.

واعلم أن كل ما يقع عليه نظرك يحمل آية تدل على الله، وتشير إليه، فقد قيل:

«الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»[2].

وربما تمرّ الآيات أمام ناظريك فلا تتوجّه إليها، ولا تلتفت، ولا تقرأ من سطورها حرفاً واحداً.

إن سقوط «تفاحة» ناضجة من الشجرة لا يعني لك شيئاً.

أما «نيوتن» فإن الأمر يعني له الكثير. لذلك استعن على رفع بنائك المعرفي بالله (تعالى) بالتأمل في الآيات، وهي متاحة لك، ومشرعة أمام ناظريك.

---

(١) سورة طه: ٥٠.

(٢) المجلسي، مصدر سابق، ج٦٤، ص١٣٧.





تأمّل في التحدّي القرآني

تأمّل ـ أيها المنصف ـ في ما قاله القرآن الكريم وكرّره عدة مرات، وبطرق شتى، ووجّه الخطاب إلى كل الناس، من القرون الماضية إلى زماننا، ومن هو آتٍ، حيث يقول للجميع:

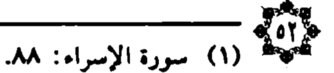
من يأت بمثل القرآن؟

إذا كنتم في ريب وشك في حقانية طريق الإيمان، والاعتقاد بالله واليوم الآخر، وكل قيم ومفاهيم الدّين التي يعبّر عنها القرآن الكريم، وإذا كنتم غير مطمئنين إلى ذلك كله فاختبروا أنفسكم، واستعينوا بمن تشاؤون، واسعوا جهدكم، واجمعوا أمركم، وحاولوا أن تجدوا أو تكتبوا مثل هذا القرآن:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]. وإذا عجزتم كان ذلك دليلاً على صدق هذه الدعوى.

من يأت بعشر سور فقط؟

ثم يعود القرآن الكريم ويتنزّل في الاختبار الذي طرحه،



(١) سورة الإسراء: ٨٨.

ويطلب أن يكون التحدي في حدود الإتيان بعشر سور من سور القرآن:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

والنتيجة أيضاً هي عجز عن مواجهة هذا التحدي، وسقوط في حبائل الضعف والفشل أمام القرآن وسوره ولو كانت بعدد محدود.

من يأت بسورة واحدة؟

ثم يعود من جديد، وهو يحاول أن يفتح الطريق لكل العابرين إلى الحقيقة.

ويتنزّل في الاختبار الإعجازي، ويطلب أن يكون التحدي بحدود الإتيان بسورة واحدة فقط:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

إنّ هذا التحدّي هو إعلان جديد من إله الكون، وخالق كل شيء، إلى العباد جميعاً، للاستماع إلى صوت الحق، ونداء العدالة والإنصاف، الذي يدعو إلى الخضوع أمام الحقائق.

فالمعجزة (كالقرآن مثلاً) لا يقدر عليها البشر، وهي من خصائص الآله فقط، وهو يجريها على أيدي عباده إذا أراد،

(١) سورة هود: ١٣.
(٢) سورة يونس: ٣٨.

كما حصل مع نبيّه موسى ﷺ، عندما حوّل عصاه إلى ثعبان، وكما حصل مع نبيّه عيسى المسيح ﷺ، عندما أقدره على إحياء الموتى، وكما حصل مع خاتم الأنبياء ﷺ، حيث أرسل إليه القرآن معجزة للتاريخ والحاضر والمستقبل.

المشركون يستمعون إلى القرآن سرّاً

ولعلّه من طريف ما ينقل عن تأثير القرآن وجاذبيته أن بعض كبار مشركي قريش، الذين كانوا يحاربون النبيّ والقرآن جهاراً، كان بعضهم من أمثال أبي جهل، وأبي سفيان، والأخنس بن شريق، يسترقون السمع في الليل، ويتلذّذون بسماع آيات من القرآن الكريم؛ لشدّة ما فيها من جاذبية، وقد كانوا باتوا لثلاث ليالٍ، يستمعون للنبيّ ﷺ، وهو يتلو القرآن وقد أخذ كل واحد منهم مجلساً دون أن يعلم به صاحبه، وفي كل ليلة كانوا عندما يتفرّقون عند الفجر يجمعهم الطريق، فيتلاومون ويتعاهدون على عدم العود(١).

كما جاء في سيرة ابن هشام أن المنافقين قرروا أن لا يستمعوا إلى كلام الرسول ﷺ، فكان إذا دخل غريب إلى مكّة أُمر بأن يضع القطن في أذنيه؛ لأن صوت الحق لا بدّ أن يأخذ بمجامع قلبه، فلا يملك المنصف حينها إلاّ أن يؤمن.

فيا أيها الأخ، المتمسّك بالوصول إلى الحق، إفتح عين قلبك وعقلك على كل هذه النداءات الإلهيّة، التي تتكرّر بصور

---

(١) ابن هشام، عبد الملك: السيرة النبوية، ط٥، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٦، ج١، ص٣٤٢.



شتّى، فقط من أجل أن تنتبه وتعود، وتُسلّم وجهك لله ربّ العالمين، الذي خلقك فأحسن خلقك، وصوّرك فأحسن تصويرك، وأمدّك بالحياة دليلاً على قدرته، وقهرك بالموت دليلاً على سلطته، وتذكيراً لك، وحباً بك، وتشوّقاً إلى نجاحك في اختبار هذه الدنيا الفانية.

فلا تحرم نفسك الخلاص، فهو خيارك، ولا تمنع نفسك الجنّة، فهي تطلبك، ولا تُلقِ بنفسك في النار، فهي لغيرك.



حكمة الشرور والبلاءات

* أصالة الخير وعرضية الشر
* شواهد موضحة
* عدم العلم لا يعني العلم بالعدم
* بين الترجيح والاختلاف
* الاختلاف مظهر الحياة الحقيقية
* الأطفال الاستثنائيون
* روائع لا يصنعها إلا البلاء
* نظام الطبيعة لا يقبل الاستثناء



يحق لك أخي الكريم ـ أن تسأل بعد هذا الحديث عن النظام التام والأتمّ، الذي يزخر به العالم، في كل مشاهده ومحطاته، عن التفسير المنطقي لمشاهد، قد تبدو في ظاهرها خرقاً لدعوى النظام، وخروجاً عن ثابتة الحكمة في الخلق.

فما هو التفسير المنطقي لكل مشاهد النقص في العالم؟

أين تلتقي الشّرور الناتجة عن المصائب مع دقّة النظام؟

ما هي الحكمة من وجود الحيوانات المفترسة أو السامّة والمؤذية؟

لماذا يولد بعض الناس وفي خَلقهم نقص؟...

هذه الأسئلة المهمة والمرتبطة بعدّة مباحث، تعرّض لها العلماء قديماً وحديثاً بالشرح والتفصيل، كما كانت مورداً لإشكال بعض الفلاسفة، وهو الإشكال السادس الذي طرحه الفيلسوف الإنكليزي دايفد هيوم (١٧١١ ـ ١٧٧٦)[*] من ضمن الإشكالات الستة، المعروفة له على برهان النظم، وذلك في كتابه (محاورات في الدين الطبيعي)[١]. ولأن هذا المطلب هو من المطالب الواسعة فإنّني سأحاول عرض الإجابة ضمن التالي:

(*) فيلسوف ومؤرخ وعالم اقتصاد اسكتلندي.

(١) Hume, David, Dialogues Concerning Natural Religion, Edited and introduced by Stanley Tweyman. London: Routledge press, 1991, pp. 163 - 170.



أصالة الخير وعرضية الشر

اعلم، أخي العزيز أن كل شيء في عالم الوجود هو خير محض، في حين أنه لا وجود للشر المحض في العالم، وقد دفع النقاش في الخير والشر قديماً بعض المذاهب الهندية إلى القول بوجود إلهين، أحدهما يصدر عنه الخير، والآخر يصدر عنه الشر، وهذا ما يُعرف بنظرية (الثنويّة)(*)، فهؤلاء أرادوا أن يحلّوا الإشكال بطريقة تعسّفية، حيث إنهم أرادوا تنزيه الخالق عن الشرور، فوقعوا في إشكال أكبر، حيث جعلوا له شريكاً، وقالوا بوجود مبدأين للعالم، ونحن لا نحتاج في معرض رفع الإشكال إلى الوقوع في هذا الاضطراب، لأننا لا نلتزم بوجود الشرّ كواقع، وإنما وجوده ذهني محض، ينشأ عند المقارنة والمقايسة.

(*) الثنوية (Dualism / Dualisme): فرقة تقول بإلهين اثنين، إله الخير وإله الشر، قالوا إنّا نجد في العالم خيراً وشراً. والواحد لا يكون خيراً وشراً بالضرورة، فكل من الخير والشر فاعل إذاً على حدة، وفاعل الخير هو النور، وفاعل الشر هو الظلمة، والمجوس ذهبوا إلى أن فاعل الخير هو (يزدان)، وفاعل الشر هو (أهرمن)، ثم ذهبوا إلى عبادة النار، لأنها عندهم أساس الحياة، وأصل الوجود.
راجع: صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٩٤، ج١، ص٣٨٠.



إن الشر أمر عدميّ، وهو من نوع «العدميات» و«الفراغات»، ووجوده من نوع وجود «النقائص» و«الفقدانات»[1].

وهذا يلغي بشكل نهائي سؤال:

من الذي خلق الشرور؟

ولماذا بعض الموجودات خيّرة، وبعضها شريرة؟

فالشرّ ليس من ألوان الوجود، وإنما هو خلاء وعدم. وقد ذهب بعض الفلاسفة والمتكلمين إلى أن الشرور لا تطلق حقيقة إلا على عدم الوجود، ممّا له شأن الوجود، كموت زيد بعد وجوده، أو عدم الشجرة بعد وجودها، وعلى عدم كمال الوجود مما له شأنية ذلك الكمال، كعدم الثمر من الشجر القابل له، أو عدم العلم ممن له شأنية العلم[2].

ولعلمي بدقّة هذا المطلب وصعوبته أطلب منك أخي القارئ أن تتابع الأمثلة الموضّحة الآتية:

---

(١) مطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ترجمة: محمد الخاقاني، ط٢، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٥، ص١٥٨.

(٢) الخرازي، محسن: بداية المعارف الإلهية، ط٦، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٩٩٩، ص١٢٦.



شواهد موضّحة

الشاهد الأول: الرياح

العاصفة التي اقتلعت شجرة أو بيتاً أخذت اسم (الشر) عند مقارنتها بالضرر الذي سبّبته لسكان الساحل، وأما عند مقارنتها مع توقف السفن الشراعية في وسط البحر فإنها ستأخذ اسم (الخير). كذلك فإن الريح سبب في تلقيح الأشجار، وإزالة التلوّث، والدخان والغازات المولدة للسرطان، وبعبارة أخرى، لا نستطيع الحديث عن الشر إلا في مقام المقارنة والقياس[1]؛ لأن الشر ليس له واقع مستقل، فحقيقته متوقفة على مقارنته بشيء آخر.

الشاهد الثاني: بناء المستشفى

إنّ بناء مستشفى أو مدرسة هو خير محض، وإذا توقف هذا البناء على قطع طريق لمدّة محدودة وصادف مرور شخص على هذا الطريق، فإن صفة الشر تظهر؛ لأنها ليست أصيلة، بل هي مستجدّة وطارئة، ولا تصدق إلا قياساً إلى مرور شخص على هذا الطريق.

(١) سبحاني، مصدر سابق، ص٥٣.

الشاهد الثالث: نزول المطر

إنّ السيل الذي ينزل على قرية فيُغرق منزلاً هو خير محض، صادف أمراً يمكن اعتباره شراً، ولكن ماء المطر على كل حال هو رحمة من الله (تعالى) إلا أنه اتفق نزوله في هذا الزمان وهذا المكان، فجرف حماراً فقتله، فهل هذا يعني أن ماء المطر صار شراً لأجل الحمار؟! لماذا لا نقول: مات الحمار واستراح من صاحبه؟!

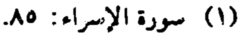
الشاهد الرابع: شق الطريق

إن صوت (البلدوزر) وغبارها قد يزعجان عابر سبيل، وهذا شر، في الوقت الذي تشقّ فيه طريقاً، فهل يكون الشر أصيلاً أم عارضاً؟

الشاهد الخامس: الزلازل والبراكين

الزلازل تنفّس عن الضغط المكبوت في داخل الكرة الأرضية، وتحمي القشرة الأرضية من الانفجار، وتعيد الجبال إلى أماكنها، كأوتاد تعطي الأرض الثبات والاستقرار. كما وأن حركتها ـ وبالرغم من الخسائر التي تخلفها ـ مرتبطة بالمدّ والجزر المتأثّر بالقمر، وهذا المدّ والجزر يدفعان المياه الحلوة، التي تصبّ في البحر إلى الخلف، فتسقى ملايين الأشجار.

﴿. . .وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].



(١) سورة الإسراء: ٨٥.



كما أن البراكين تنفث المعادن، والثروات الباطنة، وتكسو الأرض بتربة بركانية خصبة.

الشاهد السادس: العقارب والأفاعي

العقارب والأفاعي والتي يعتبر البعض وجودها شراً، يقول علماء الطبيعة: إنها تمتصّ السموم من الهواء، وتحتفظ بالسم في بدنها، وهي بنفسها علاج للسم. ويقولون: إن علاج لدغة العقرب هو أنهم يشقون بطن العقرب، ويضعونه فوق مكان اللدغة فيشفي[١].

سمّ العقرب ينقذ حاكم شيراز من الفلج

نُقل أن أحد حكام مدينة شيراز في إيران أصيب بالفلج وأصبح جليساً لا يقوم، وبعد أن عجزوا عن شفائه نقلوه إلى (نيشابور)، وقد كان فيها «محمد بن زكريا الرازي»[٢] الأستاذ الأكبر في علم الطب. وعندما وصلوا به إلى نيشابور مساءً، باتوا ليلتهم، فبات المريض على الأرض، وبات من معه على السطح لشدّة الحر، ولما أفاقوا وجدوا مريضهم معافى، فلما سألوه، لم يعرف السبب، فذهبوا إلى الرازي وأخبروه بما جرى معهم، عندها أمر الرازي أن يخلعوا ثيابه، فلما فعلوا وجدوا

(١) الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٩، ج٥، ص٣٥٣.

(٢) أبو بكر، محمد بن زكريا (٢٥١ ـ ٣١٣هـ)، من أئمة صناعة الطب، اشتغل بالسيمياء والكيمياء، ثم عكف على الطب، والفلسفة في كبره فنبغ واشتهر، له ٢٣٢ كتاباً ورسالة.



عقرباً مخفياً تحت ثيابه، حيث إن الفلج لا يمكن علاجه إلا بسمّ العقرب[1].

لذلك يمكن القول إنه لا وجود للشر المحض، حتى الشيطان كان خيراً في البداية، ووصل إلى درجة الملائكة، بل خطيبهم، وقد ورد في نهج البلاغة:

«... وكان قد عبد الله ستة آلاف سنة، لا يُدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة، عن كبر ساعة واحدة»[2].

وعندما تكبّر الشيطان على السجود لآدم استحق الطرد والإبعاد من العالم الأعلى، فهو كان سبب ذلك الذي لحق به.

فالشرّ إذاً أمر نسبيّ والحكم على أي حدث من ناحية الخير والشر لا بدّ أن يقيَّم من خلال مجموعة متكاملة، وإلاّ كان التقييم ناقصاً.

إنك لا تستطيع أن تلعن الظلام؛ لأن ثمّة في العالم من لا يعيش ولا يبصر إلاّ في ظلّه، فالخفاش يزعجه نور الشمس، وهو يغمض عينيه ولا يرى إلاّ في الظلام.

---

(١) الجاحظ، مصدر سابق، ج٥، ص٣٦٣.
(٢) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٣٩٥.





عدم العلم لا يعني العلم بالعدم

إن الإنسان يتصوّر ـ أحياناً ـ أن عليه أن يرفض كل ما لا يحيط به علمه، ظناً منه أنه بذلك يلتزم منهجاً عقلياً متماسكاً، يحول بينه وبين الاعتقاد بأمور فاسدة، والحق أن يقال: إن هذا الكلام جيد، إلاّ أنه يضع في رصيد الإنسان خسائر معرفية كبيرة، هي مجموع كل العلوم التي لم يصل إليها علمه بعد، وقد فات هذا المفكّر العاقل أن عقله نفسه يدعوه إلى عدم نفي الحقائق التي لم تصل إلى مداركه.

لا يحق لي (لأنني لم أنزل إلى قعر البحر، أو لم أقرأ أو أشاهد تقريراً عما في هذا العالم) أن أرفض وجود كائنات حيّة، وأسرار عميقة في هذا البحر الكبير، وإذا فعلت (أي أنكرت ورفضت)، فإن الخسارة المعرفية التي ستحصل هي من نصيبي أنا.

يقول (أوليفر لوج)[*] (الذي كان له دور مؤثر في اكتشاف التلغراف): «إنّ ما نعلمه مقارنة بما لا نعلم هو لا شيء، وإذا كان أحد يقول هذا بدون اعتقاد فإنني أقوله مؤمناً به تماماً»[1].

(*) Lodge, Sir Oliver Joseph (1851-1940)

(١) نقلاً عن سبحاني، مصدر سابق، ص٥٤.



يقول العلماء: إنّ للهواء الذي يحيط بنا وزناً ثقيلاً، والبدن دائماً تحت وطأة هذا الوزن الثقيل، حيث يتحمّل كل شخص مقدار ستة عشر ألفاً من الكيلوغرامات من ثقله، وحيث يبطل الثقل من أثر الضغط الداخلي للبدن فلا نحسّ بألم الثقل بعد هذا. هذه حقيقة ثابتة علمياً اليوم، ولكنه لم يكن أحد يعلم بها قبل التجارب في الفيزياء، والتي أجراها في أوائل القرن السابع عشر أمثال (Galileo)[١] و(Pascal)[٢].

فاقرأ يا صاحبي مع أبي نؤاس:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة   حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

مثال آخر:

من المعروف أنه يصعب حمل جسم ثقيل بأصابع اليد لو لم توجد الأظافر، فالظفر هو الذي يتلقى ضغط الأوزان الثقيلة، ولذا فإنك لا تسأل عن فائدة وحكمة الظفر بعد أن عرفتها، فهل يحق لك قبل التعرّف على هذه الفائدة أن تنكر وجود نفع لأظافر اليد، فتسارع إلى اقتلاعها مثلاً؟!

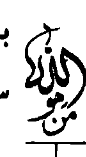
لذا يجب أن لا ننكر كل ما لا نعلمه!

وبما أن العلوم تتقدّم وتتسارع بشكل هائل، وتأتي كل يوم

---

(١) Galileo, Galilei، (١٥٦٤م ـ ١٦٤٢م) عالم إيطالي من علماء الفيزياء المشهورين. اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس، دانته الكنيسة عام ١٦٣٢م، ثم برأته عام ١٩٩٢م. من مخترعاته ميزان الحرارة والمنظار الفلكي.

(٢) Blaise, Pascal (١٦٢٣م ـ ١٦٦٢م) فيلسوف ورياضي وأديب وفيزيائي فرنسي، له اكتشافات علمية جديدة.



بجديد، فلا يصحّ أن ننكر ـ سلفاً ـ ما لم نصل إليه اليوم؛ لأننا سنندم على إنكاره غداً..





بين الترجيح والاختلاف

أخي العزيز..

مع علمي بدقة هذا البحث، وصعوبة بعض مطالبه، إلا أنني أطلب منك التمعّن فيه، والصبر على مقاصده، علماً أنني حرصت على تقديمه لك مهذباً من المصطلحات الصعبة، والعبارات الفلسفية المعقدة.

السؤال المطروح هنا إنما يتعلق بما يمكن أن يتوهم تنافيه مع العدل الإلهي. وهو على الشكل التالي:

ألا يتنافى التمايز والترجيح الحاصل بين البشر ـ من جهة الأنواع والأصناف والأوصاف، كالسواد والبياض، أو البلادة والذكاوة، أو النقص والتمام، أو الرجولة والأنوثة، أو الإنسانية والحيوانية... ـ مع العدل الإلهي.؟!

وحاصل الجواب:

إن السؤال المتقدّم مبنيّ على كون ما ذكر من تفاوت هو من باب الترجيح. والصحيح أنه من باب الاختلاف. فما هو الفرق بين الترجيح والاختلاف؟



الترجيح: هو التفرقة بين أشياء متساوية في الاستحقاق.



والاختلاف: هو التفرقة بين أشياء غير متساوية في الاستحقاق.

وبعبارة أخرى:

الترجيح يكون من قبل المُعطي، أما الاختلاف فيكون من قبل الآخذ.

مثال على ذلك:

لو منح الأستاذ الطلاب (المتحدين في مستواهم العلمي والمتماثلين في التزامهم بواجباتهم) درجات مختلفة فهذا ترجيح. أما إذا خضع الطلاب لامتحان، ولم يستطع بعضهم الإجابة عن جميع الأسئلة، واستطاع البعض الآخر أن يقدم إجابة كاملة وصحيحة، ووضع الأستاذ علامات ودرجات للطلاب، وفقاً للإجابات التي وضعوها فإنه من الطبيعي أن تكون النتائج مختلفة، وهذا الأمر لا يُعتبر ترجيحاً وإنما يعتبر اختلافاً[1].

فالعدالة لا تقتضي أن يجمع الأستاذ كل العلامات ويقسمها بين الطلاب بالتساوي. وإنما العدالة تفرض أن يعطي الأستاذ كل طالب ما يستحقه. وهذا التفريق هو عين العدالة، في حين أن عدم التفريق هو عين الظلم والترجيح.

وبما أن العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، وحيث إنه لا حق للشيء قبل خلقه، فكل ما أعطاه الله (تعالى) للأشياء تفضل منه، فالاختلاف فيه لا يكون ظلماً[2].

(١) مطهري، مصدر سابق، ص١٢٩.
(٢) الخرازي، مصدر سابق، ص١٣٦.



وقد روي بهذا المعنى خبر عن الإمام الباقر عليه السلام حيث سئل:

يابن رسول الله صلى الله عليه وآله، إنّا نرى الأطفال، منهم من يولد ميتاً، ومنهم من يسقط غير تام، ومنهم من يولد أعمى، وأخرس وأصم، ومنهم من يموت من ساعته إذا سقط إلى الأرض، ومنهم من يبقى إلى الاحتلام، ومنهم من يعمر حتى يصير شيخاً، فكيف ذلك، وما وجهه؟

فقال الإمام عليه السلام:

«إن الله (تبارك وتعالى) أولى بما يدبره من أمر خلقه منهم، وهو الخالق والمالك لهم، فمن منعه التعمير فإنما منعه ما ليس له، ومن عمّره فإنما أعطاه ما ليس له، فهو المتفضّل بما أعطى، وعادل فيما منع، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون»[1].

بعد هذا التفريق بين الترجيح والاختلاف، وارتفاع الإشكال بتنافي ذلك مع العدل الإلهي، يبقى في البال السؤال التالي:

سلّمنا بوجود اختلاف ليس فيه ظلم، لكن، ما هي حكمة هذا الاختلاف؟

(١) نور الثقلين، ج٣، ص٤١٩.





الاختلاف
مظهر الحياة الحقيقية

إعلم، أيها الأخ الحبيب...

إنه لولا الاختلاف لما وجد العالم المادي، ولا النظام الاجتماعي، فلو حصل التساوي على مستوى النوع لكان على الإنسان أن يعيش وحده، مع فقدان الأنواع الأخرى، فلا ندري، من أين يأكل الإنسان؟ أو يشرب؟ أو يلبس؟ فكل ما في الوجود هو نوع واحد لا غير، هو الإنسان، وهذا في غاية الغرابة!!

ولو كان التساوي على مستوى الجنس، لكان الناس كلهم ذكوراً أو كلُّهم إناثاً، وهذا يؤدي إلى توقف النسل، الذي جعله الله (تعالى) وقفاً على وجود زوجين اثنين، الذكر والأنثى.

فإن قيل: لو سألت النساء، بأن الله (تعالى) لِمَ جعلنا من الإناث، ولم يجعلنا من الرجال؟ كان الجواب: أنه لو عكس الله (تعالى) الأمر، أي جعل النساء رجالاً، والرجال نساءً، لما ارتفع السؤال. وقد تقدم أن تنوّع الخلق ضرورة لبقاء النسل، والتكاثر بين الخلق.



ولو كان الناس متّحدين على مستوى اللون والشكل لما تعارفوا[1].

فالاختلاف ضرورة كونية وإنسانية، ولولا الاختلاف لما تميّز الحسن من القبيح، فالقبح يُظهر الحسن.

لو كان طلاب الجامعة كلّهم متفوّقين لم يبق للتفوّق معنى.

ولو كان الناس كلّهم جميلين لم يكن أحد منهم جميلاً.

ولو كان الناس كلّهم قبيحين لم يكن أحد منهم قبيحاً.

ولو كان الناس كلّهم أوائل وأبطال لم يبق الأول أولاً، ولم يعد البطل بطلاً.

ولو لم تكن الجبال لم توجد الوديان، ولو كان ارتفاع الجبل والوادي واحداً لما كان الجبل جبلاً، ولما كان الوادي وادياً.

أيها العزيز..

إنه من البساطة والسذاجة بمكان أن يفكر الإنسان بأن العالم الأفضل هو العالم الذي يكون كل شيء فيه سواء[2]...

(1) الخرازي، مصدر سابق، ص١٣٧.

(2) مطهري، مصدر سابق، ص١٧٩.





الأطفال الاستثنائيون

بعد كل الذي تقدم، يصبح من اليسير تفهّم الحالات الاستثنائية التي يولد عليها بعض الأطفال، ولمزيد إيضاح نقدّم هذا العرض باختصار:

مما لا شك فيه أن الأصل في الخلق أن يكون سوياً، كاملاً، وتاماً، وهذا ما نشاهده في كل وجه نراه، وكل صورة نتأمل فيها.

إلا أن العلم الحديث أثبت أن أحد أهم الأسباب التي تعطل الإمكانات المودعة من قبل الله (تعالى) في الإنسان هي ما يفعله البشر من أخطاء وانحرافات. فالله (تعالى) وضع كل الإمكانات والمقتضيات بين يدي الإنسان، الذي يتصرف أحياناً بعبثية وإهمال، مما يوجب وجود مانع من تكامل الإمكانات، ووصولها إلى مرحلة الخَلق السوي، فالمخدرات، والكحول، والاتصال الجنسي المحرّم، وغير ذلك هي من الموانع. كما أن سوء التغذية، والمقاربة في أيام العذر الشرعي، وعدم الاعتناء بالآداب الخاصة بين الزوجين، كل ذلك يساعد على تحقيق مانع من هذا النوع، ولا ننسى العوامل الوراثية، والتي تؤثر في الشجاعة والكرم، وغير ذلك...

والخلاصة إن الله لم يَحرم أحداً من الإمكانات، ولكن البشر حرموا أنفسهم من خلال سوء التصرف. يقول (تعالى):

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1].



(١) سورة الشورى: ٣٠.



روائع لا يصنعها إلا البلاء

«لولا ثلاثة لما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر، والمرض، والموت» النبيّ ﷺ.

أخي العزيز..

بعد كل هذا الكلام المتقدّم، والذي أتعبتك بمتابعته، يبقى طمعي أن أُسعدك بمعرفة سرّ البلاء وحكمته، والخروج من الشك إلى اليقين. قال أحد العلماء الأفذاذ كلاماً رائعاً:

«الشك مقدمة لليقين، والسؤال مقدمة للوصول إلى النتيجة، والاضطراب مقدمة للاستقرار. إن الشك لمعبر رائع بقدر ما هو منزل سيّئ»[1].

ولكي نخرج بسرعة من هذا المنزل السيّئ (منزل الشك)، تابع معي بعض المحطات، التي تشير إلى فوائد البلاء، ودخالتها في صقل شخصية الإنسان، وبنائها واستقامتها، وقوة إرادتها، وثباتها في مختلف التحديات.

يقول الإمام عليّ عليه السلام:

(١) مطهري، مصدر سابق، ص١٢.

«ألا وإن الشجرة البرّيّة أصلب عوداً، والرواتع الخَضِرة أرقّ جلوداً، والنباتات البدوية(*) أقوى وقوداً وأبطأ خموداً»[1].

الفوائد التربوية للبلاء

لقد جعل الله (تعالى) البلاء عنواناً تجتمع فيه فوائد عظيمة، وبركات كبرى، فهو يشكل رادعاً عن الخطأ والانزلاق، وهو عقاب لمن يظلم نفسه أو قومه ويساهم في نشر الفساد في الأرض. كما أن البلاء في أحد وجوهه مناسبة لترتفع درجة الإنسان، ويتقدّم موقعه المعنوي، ويصبح من الصابرين، الذين تنتظرهم درجات رفيعة عند الله (تعالى).

ولقد ورد أن البلاء هو لنوع خاص من عباد الله، الذين يختصهم بهذه الرحمة، التي يكون في ظاهرها الألم والتعب وفي باطنها الأنس والراحة. قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم [أي يأتون بعدهم]، ثم الأمثل فالأمثل [أي الأشرف رتبة فالأشرف]»[2].

أخي العزيز..

إن الله (تبارك وتعالى) جعل البلاء منبهاً وموقظاً للإنسان، الذي ينسى، ويطغى، ويستغني بسرعة، ويشعر أنه صاحب

(*) الرواتع الخضرة: النباتات الغضة، التي يُعتنى بها. النباتات البدوية: نباتات الطبيعة في الصحراء.

(1) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٥٩٤.

(2) الكليني، مصدر سابق، ص٢٥٠.



الملكات والإمكانات التي لا يضرّ معها شيء، فينحرف ويسقط في منتصف الطريق؛ لأنه لم يعد يملك الشعور سوى بالتفرّد. فلا مكان لله في قلب إنسان لا يشعر بالضعف، والخوف، والحاجة، والافتقار إلى المولى الذي يملك الأسباب كلها، من القوة، والأمن، ومن بيده قضاء الحاجات.

وكما أنه لا يعرف الحرية إلا من عاش الأسر والاعتقال، فإنه لا يعرف قيمة النعمة إلا من لامس البلاء وعايشه، وهو بلاء يُعطي الروح للحياة الخامدة أكثر مما يأخذ منها؛ لأن الحياة المترفة ميّتة لا روح فيها.

إن اللحظة التي يعيش فيها الإنسان تطلعاً إلى ذاته دون سواها، هي لحظة السقوط في سجن البدن المظلم، الذي يقود نحو الهاوية، وهذا ما حصل مع فرعون عندما لم يرَ حوله إلا نفسه؛ لأنه كان سجين أناه، ورهين هواه؛ لذا وصل به الطغيان إلى أن قال:

﴿... أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[1]،

أو كما قال «نمرود» لنبي الله إبراهيم عليه السلام في لحظة تكبّر واستعلاء:

﴿... قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ...﴾[2].

ولقد جاءهما من الله (تعالى) جواب سريع، وأجل قريب، فكانت عاقبة فرعون الغرق، وعاقبة نمرود الموت الذليل.

---

(١) سورة النازعات: ٢٤.
(٢) سورة البقرة: ٢٥٨.

لذا فإن الله (تعالى) ـ الذي تمتد رحمته على كل صفحات كتاب النفس ـ لم يكن ليترك الإنسان مرتهناً للنسيان، وإنما جعل له منبهاً وموقظاً، وصوتاً صادقاً، يناديه بين الحين والآخر؛ ليستفيق ويعود، هذا الصوت هو البلاء.

دليل واحد يسقط مئة دليل

نُقل أنه كان في زمان الشاه رضا خان (في إيران) رئيس وزراء مغرور، إلى حد أنه كان يقول بأنه يملك مئة دليل على عدم وجود الله (تعالى).

لم يمر الوقت، حتى أخذ رشوة كبيرة لإرسال الحنطة إلى خارج إيران، وارتكب مخالفات أخرى، أودت به إلى السجن. يقول أحدهم: ذهبت إلى السجن الذي كان فيه، فوقع نظري على ذلك المسكين، فرأيته مهموماً، فسألته عن حاله، وقلت له:

هل تستطيع أن تذكر لي بعض تلك الأدلة التي كنت تدعي بها أن الله غير موجود؟ فأجهش بالبكاء وقال:

«لقد وجدت دليلاً نسف كل تلك الأدلة وأبطلها. هذا الدليل هو حالي الآن، بعد أن كنت بالأمس كذا وكذا... عندها علمت أن الله موجود»[1].

والشاهد: أن هذا الشخص بعد أن وقع في المصيدة جعله البلاء إنساناً.

---

(١) دستغيب، عبد الحسين: التوحيد والعدل، ترجمة: أحمد قبانجي، ط١، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨٧، ص٤٢.



نظام الطبيعة لا يقبل الاستثناء

إن هذا الكون يحكمه النظام، وهو خاضع لقوانين لا تختلف ولا تتخلف، وهي قوانين نوعية، وليست شخصية، أي أنها تلاحظ النوع البشري كله، ولا تلاحظ الشخص أو الفرد، ولذا فإن هذه القوانين من صفاتها أنها لا تقبل التخصيص، فلا نستطيع ان نقول: الماء مفيد إلا بالنسبة إلى فلان الذي شرب فشرق فمات. أو أن الكهرباء مفيدة، وممدّة بالطاقة، إلا إذا أمسكها الإنسان، فإنه يصاب بمكروه أو ضرر.

إلا أن الله (تعالى) عندما خلق القانون العام، أعطى الإنسان القدرة على الدفاع عن نفسه، ومواجهة القانون من خلال تطويعه، ليخدم حاجات الإنسان. والطريق إلى ذلك، العلم والمعرفة بهذا القانون وأسراره.

فالله (تعالى) عندما خلق الذئب (الذي هو بلاء بالنسبة إلى الخروف مثلاً)، خلق الإنسان لحماية الماشية، وكذلك خلق كلب الماشية الذي يحرسها بأمان.

كما أن الله لم يترك الإنسان يعاني المرض دون أن يرشده إلى سبل الوقاية قبل المرض، والعلاج بعد وقوعه. ولذا أحصى العلماء أكثر من ٤٠٠ نوع من أنواع المرض، لكل نوع منها نوع من العلاج في النباتات الصحراوية والجبلية.

بل إن الحيوان ـ أيضاً ـ يكون ملهَماً بدوائه عند المرض، حيث يقال: إن هناك نوعاً من ألم البطن يصيب الهرّة، وعلاجه نبات خاص، ينبت عادةً فوق سطوح المنازل، ويقال ـ أيضاً ـ إن الطير عندما يمرض فإن دواءه يكون في فضلات الكلب.

هذا، فضلاً عن أن الأمراض نفسها تكون سبباً للشفاء من أمراض أخرى محتملة، وهنا أذكر مثالاً واحداً أعتقده كافياً:

يقال إن الإصابة بالزكام تمنع من الجنون؛ لأن الزكام يؤدي إلى تفريغ الدماغ من الرطوبات، وتخليصه منها، ليكون مستعداً للتفكير بصورة أفضل، ولولا الزكام لبقيت المواد في الدماغ، ومنعت الذهن من الإدراك السليم[1].

وقد ورد في الخبر عن النبي ﷺ قوله:

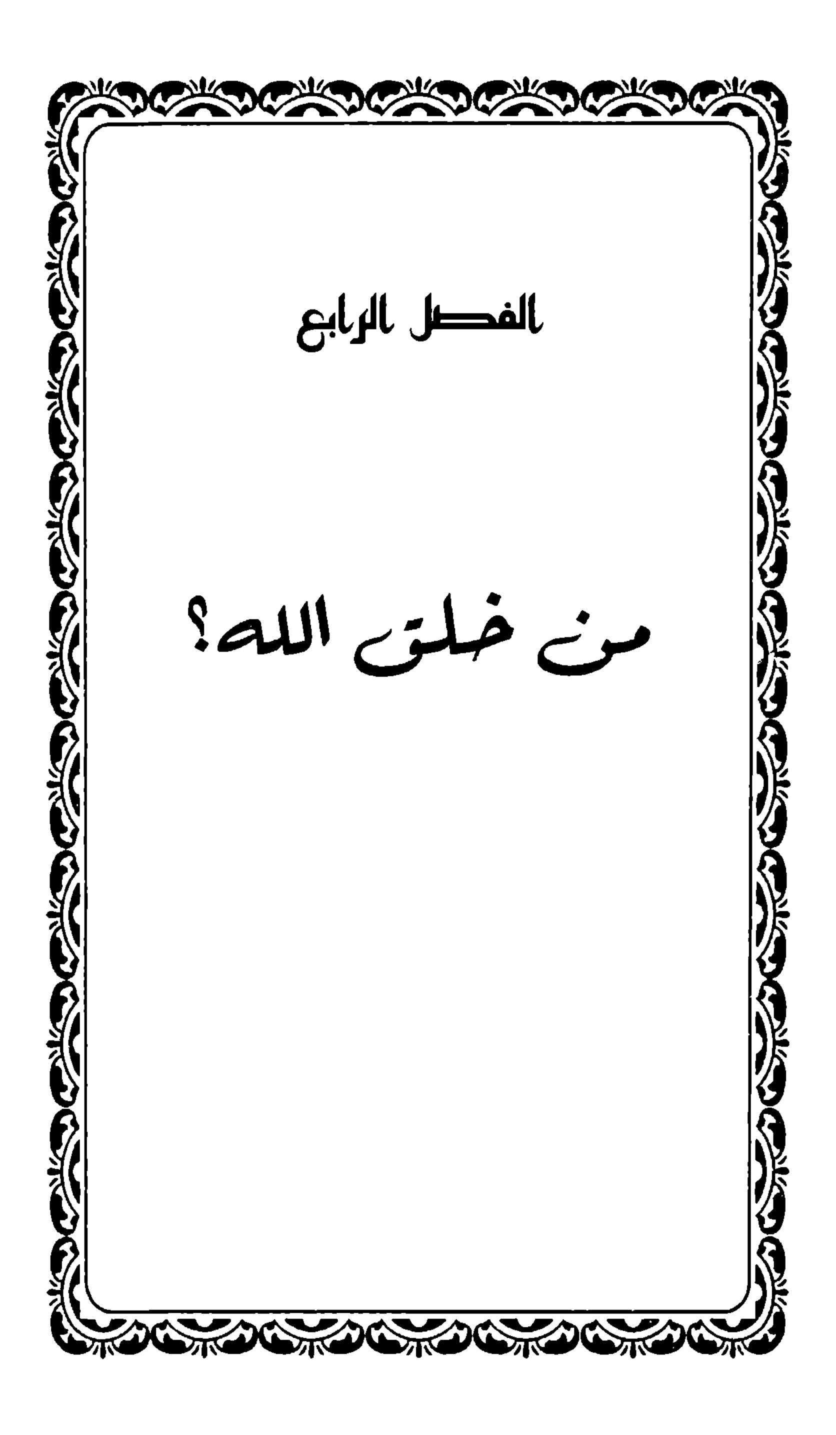
«لا تكرهوا أربعة فإنها لأربعة:

لا تكرهوا الزكام فإنه أمان من الجذام، ولا تكرهوا الدماميل فإنها أمان من البرص. ولا تكرهوا الرمد فإنه أمان من العمى. ولا تكرهوا السعال فإنه أمان من الفالج»[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٢ ـ ٥٤.

(٢) القمي، عباس: سفينة ومدينة الحكم والآثار، ط.١، قم، الأسوة، ١٩٩٣، ج٣، ص٤٧٢.



الفصل الرابع

من خلق الله؟



لقد نشط المعاندون للحقيقة الإلهية، (بعد أن أعجزتهم الأدلة القاطعة)، في اختراع أسئلة من شأنها إرباك العقول، التي لم يتماسك إيمانها بعد.

وكثيراً ما كنتُ أسمع هذا السؤال يُطرح، خاصة بين الطلاب في الجامعة، وشريحة الشباب عموماً، حيث قد نجد من يتباهى به، ظناً منه أن الإجابة صعبة أو متعسرة.

فما هي حقيقة هذا الإشكال؟ وما هو أوضح جواب عليه؟

أولاً: في توضيح الإشكال:

تقدّم الكلام أن أحد الدلائل على إثبات الصانع، هو برهان النُظم، وإحدى مقدماته قانون «العلّة والمعلول»، أي أن لكل شيء علّة، وعليه فإن قانون «العلّة والمعلول» يشمل جميع المخلوقات، فإذا كان لكل شيء علّة وخالق، فما هي علّة وجود الله؟ أو من هو خالق الله؟

ثانياً: في الجواب على الإشكال:



حرصاً على وضوح هذا المطلب، أطلب منك ـ أيها



القارئ الكريم ـ الانتباه إلى هذا الجواب الذي سأعرضه في مقامين:

المقام الأول: الذاتي لا يُعلّل

قانون العلّة والمعلول، في حقيقته، لا يقول: «الكل موجود علّة، أو لكل شيء علّة»، بل يقول: «الكل ظاهرة علّة، أو كل حادث يحتاج إلى علّة تُوجده بعد العدم»، لأن المقصود هو إخراج المعدوم من العدم إلى الوجود، أو من حالة عدم التحقق إلى حالة التحقق، من حالة عدم الظهور إلى حالة الظهور. فالظاهرة هي ما يحتاج إلى مُظهر، أو إلى علّة، أو إلى مُوجد، مثلاً: ابنك الذي لم يكن، ثم ظهر إلى الوجود، يحتاج ظهوره إلى علّة.

وهذا القانون هو قانون عام، يصدق وينطبق على كل ما من شأنه الظهور، وعلى كل ما من شأنه أن يكون مسبوقاً بالعدم.

وأما الموجود فإنه يحتاج إلى علّة ـ فقط ـ إذا كان من قسم (الظواهر). أما موضوع كلامنا وهو الله (تعالى) فهو موجود، ولكنه ليس ظاهرة، بمعنى أنه كان معدوماً، أو مسبوقاً بالعدم، حتى نتحدث ونسأل، كيف وُجد؟... ومن وأوجده؟.

فالله موجود أزلي وأبدي، فلا يحتاج إلى علّة، ولا ينطبق عليه قانون «العلّة والمعلول».

والسؤال المطروح «من خلق الله؟»، إنما يكون صحيحاً لو أن الله (تعالى) كان في وقت ما فاقداً للوجود، ثم ظهر إلى

الوجود، والحال أنه ليس كذلك، فهو موجود منذ الأزل، بل هو يعطي الوجود للكائنات.

وبعبارة أخرى، وجود الله (تعالى) ذاتي، فلا يُعرض عليه أو يأتيه الوجود من غيره، حتى يصح السؤال، وإذا كان وجوده ذاتياً صار خاضعاً للقاعدة العقلية القائلة: «الذاتي لا يعلّل».

وهنا نعرض بعض الأمثلة التقريبية[1] التي تبيّن معنى أن «الذاتي لا يعلّل»:

المثال الأول:

الحاكم يكتسب القدرة من حاكم يعلوه رتبة، وهكذا، إلى أن ينتهي الأمر إلى حاكم أعلى، وهذا (الحاكم الأعلى) يكتسب قدرته من الشعب، أما الشعب فلا يكتسب قدرته من أحد، بل هي ذاتية، فتكون قدرة الحاكم ومن لحقه بالعَرَض، وقدرة الشعب بالذات، فلا نسأل: من أين أتت قدرة الشعب؟

المثال الثاني:

الأغذية الحلوة سبب حلاوتها السكر، والسكر حلوٌ بنفسه وبذاته. كذلك الأمر بالنسبة للأغذية المالحة فإن الملح هو مصدر ملوحتها، أما الملح فملوحته ذاتية.

المثال الثالث:

إذا كانت الغرفة مضيئة فإن النور هو سبب إضاءتها، وأما النور فهو مضيء بذاته، فلا نسأل عن سبب إضاءته.

---

(١) الهادي، جعفر: الله خالق الكون، ط٢، بيروت، دار الأضواء، ١٩٨٦، ص٣٠٢.

المقام الثاني: السؤال خلاف الفرض

إننا عندما نقول (الله) فإننا نقصد الموجود الأزلي الأبدي، الدائم الوجود، الذي لم يكن له عدم من قبل.

وعليه فإن السؤال إذاً غير صحيح، لأنه يناقض نفسه، ويتناقض مع مقدماته، فأنا عندما أقول لك إن «مايكل شومخر» ـ مثلاً ـ هو بطل العالم في «سباق السيارات»، أي أقوى مسابق في العالم، فهل يصح منك أن تقول لي بعد ذلك: من الذي يفوق «شومخر» قوةً في السباق؟ إن هذا السؤال خاطئ؛ لأنني أفرض أن فلاناً هو الأقوى في العالم، ولذا نحن نقول: الله (تعالى) هو الخالق، أي أنه غير مخلوق، فلا يصح أن نقول: من خلقه؟ لأنه خلاف الفرض. أو عندما أقول: إن فلاناً هو صاحب المرتبة الأولى بين الطلاب، في صف الفيزياء، من السنة الثالثة مثلاً، فهل تستطيع أن تعود فتسألني عمّن يفوقه، أو يتقدّم عليه في صفه؟ إن هذا السؤال هنا يصبح خطأً.

ملاحظة مهمة:

هذا السؤال المطروح سابقاً والذي أجبنا عنه إجابة وافية، كما يُطرح على المؤمنين الإلهيّين، يُطرح على الماديّين.

فمن وجهة نظر الإلهيّين، إنّ جميع الموجودات تعود إلى الله، الذي وهبها الوجود. ومن وجهة نظر الماديّين فإن جميع مظاهر الوجود تعود إلى المادة، وهي منبع التجلّي.

فالسؤال المطروح على المادي: من خلق هذه المادة؟ أو ما هو مبدأ هذه المادة؟ وإلى أين ترجع؟





والعجيب أن بعض الماديّين يطرحون السؤال: من خلق الله؟ ويستدلون عليه بقانون العلية، دون أن يلتفتوا إلى أنهم معنيون بالإجابة عن هذا السؤال.

والعجيب أن الفيلسوف الإنكليزي وعالم الرياضيات المعروف Betrand Russel(*) يقول في كتابه (لماذا لستُ مسيحياً):

«عندما كنت شاباً كنت أناقش هذه الأسئلة بجدية في عقلي. لقد كنت ـ ولمدة طويلة ـ أوافق على الجدل القائم حول السبب الأول، إلى إن قرأت السيرة الذاتية لـ«جون ستيورات ميل»(**) حيث وجدت هذه العبارة: «لقد علّمني أبي أن السؤال من خلقني؟ لا يمكن الإجابة عليه، لأنه يطرح مباشرة السؤال التالي: من خلق الله؟» هذه العبارة البسيطة أظهرت لي كما لا زلت أعتقد المغالطة التي يحتوي عليها برهان السبب الأول»[1].

والسؤال: كيف غفل هذا الفيلسوف عن أنّ نقض هذا القانون ـ على فرض صحّته ـ مشترك بين الإلهيين والماديين؛ لأنه كما أن الله في مذهب عباد الله موجود قديم وبدون علّة، فإن مادة العالم في مذهب الماديين، موجود قديم وبدون علّة. فإذا كان الحفاظ على قانون العلّة والمعلول يجعلنا نبتعد عن

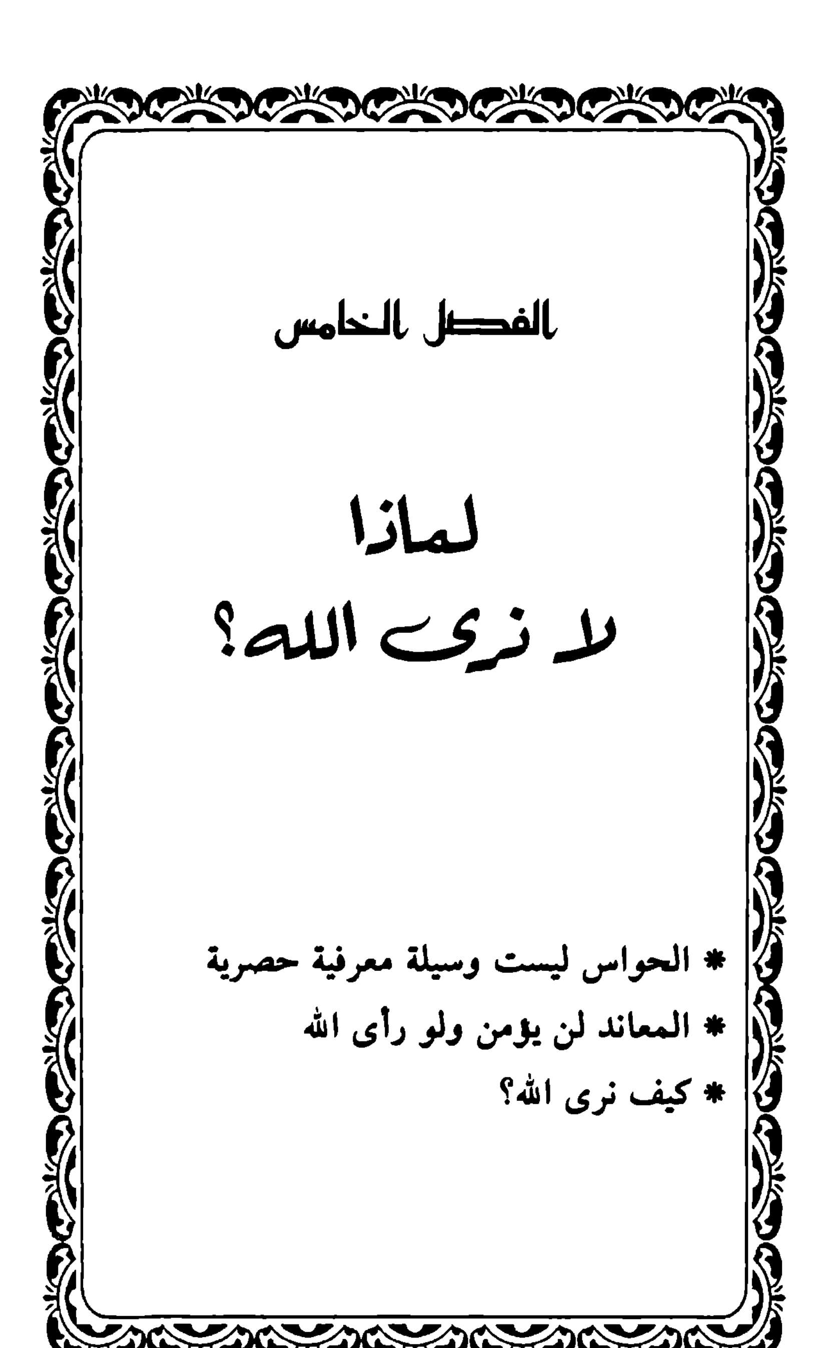
(*) برتراند راسل، Bertrand Russel (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠)، فيلسوف وعالم رياضيات بريطاني.

(**) جون ستيوارت ملّ، John Stuart Mill (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣).

(١) Bertrand, Russel, Why I am not a Christian, New York, Simon Schuster inc, p:6

التوجّه إلى الله، فلا بدّ أن يُبعدنا ـ أيضاً ـ عن التوجّه إلى المادة، ونلتحق بجميع الشكاكين، وليس بجمع الملحدين والكافرين[1].

(1) سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ط1، بيروت، دار الروضة، 1993، ص18.



الفصل الخامس

لماذا لا نرى الله؟

* الحواس ليست وسيلة معرفية حصرية
* المعاند لن يؤمن ولو رأى الله
* كيف نرى الله؟



قد يبدو للوهلة الأولى أن طرح السؤال على هذا النحو ليس مقبولاً، ولكنني أعتقد أنه من الطبيعي أن نسأل عن الله (تعالى) كل أنواع الأسئلة وأن نبحث عنه بكل وسائلنا المعرفية، وأن نسمح لكل جوارحنا أن تفتش عن انعكاسات النور الإلهي عليها.

لقد اعتدنا أن نرى الأشياء بالعين الباصرة حتى نؤمن بها.

فلماذا يا ترى لا نرى الله؟!

وكيف نؤمن بإله لا نراه؟

وكيف نستدل على وجوده وعيوننا تبحث عنه فلا تجده؟

هل لموجود سواه حظ من الحضور والوضوح أكثر منه حتى تراه عيوننا دون أن ترى الله؟!

ثم هل الله (تعالى) بعيد عن عباده؛ ولذلك لا يشاهدونه بعيونهم؟!

أم أن عباده بعيدون عنه، فلا يشعرون بحضوره، وهم يتفشون عنه في قالب صورة إنسانية، أو لوحة مادية، أو حركة جسمانية؟!

وللجواب على هذه الأسئلة نقول:





الحواس ليست وسيلة معرفية حصرية

لقد عرف الإنسان ـ وعلى مرّ التاريخ ـ وسائل متنوّعة من المعرفة، ولم تقتصر مداركه المعرفية على الحواس فقط، وإنما تعدّتها إلى وسائل أخرى، بل أثبت العالم أن هناك معارف وحقائق خارج سلطة الحواس، حيث إن هناك حقائق كثيرة نقطع بوجودها، إلاّ أن حواسنا لا تملك أي معرفة بها، فمن منا لا يؤمن بوجود الحبّ، أو الغضب، أو الفرح، أو الخوف؟ أليست كلها حقائق ثابتة؟ مع أن حواسنا كلها لا تصل إليها. ثم هل الروح الإنسانية موجودة أم لا؟ وهل نلغي الإيمان بها؛ لأننا لم نعثر عليها على طاولة التشريح، أو تحت عدسة المجهر؟!

كما أن الحواس تنتج معارف خاطئة أحياناً، ألا ترى كيف تظهر العصا مكسورة إذا نظرتَ إليها في الماء (بسبب انكسار الأشعة في الماء)، وسرعان ما ينكشف كذب العين عند إخراجها من الماء. كما أننا نرى النجوم كنقاط الضوء الصغيرة، بسبب بُعد المسافة، مع أن الحقيقة أنها أكبر بكثير مما نرى. ولنتأمل ـ أيضاً ـ في ظاهرة السراب، فالعين ترى الماء بسبب نور الشمس الذي يسطع على الطرقات المتعرجة، في حين أن هذا الماء هو سراب وليس حقيقة.

كما أن العين لا ترى من الانوار إلا ما يكون طول موجته أقل من ٤٠٪ (micron)، وأكثر من ٨٠٪ (micron)، ولهذا فهي لا ترى الأشعة ما فوق البنفسجية، وما تحت الحمراء.

والدقة هنا تقتضي القول بأن هذه الأخطاء لا تتحمل مسؤوليتها الحواس؛ لأنها تراها كما هي، بل إن الذهن (الذي يجب أن يقيم الترابط بين الحقائق) هو من يتحمل المسؤولية.

المنهج الخطأ ذهب بعقل الأستاذ:

ما أكثر ما يرشدنا الذهن إلى حقائق لا تتصل بالحواس، وما أشهر تلك القصة التي كنا نتناقلها أيام الدراسة في الجامعة، عن الأستاذ المادي الذي كان يستدل أمام الطلاب على عدم وجود الله فكان يقول لهم:

- هل ترون الكتاب؟

- الطلاب: نعم.

- الأستاذ: هل ترون الأستاذ؟

- الطلاب: نعم.

- الأستاذ: هل ترون الله؟

- الطلاب: لا.

- الأستاذ: إذاً الكتاب موجود، والأستاذ موجود؛ لأننا نراهما، والله غير موجود؛ لأننا لا نراه.

فيقوم أحد الطلاب ليستخدم نفس المنهج المتقدّم؛ ليسقطه ومعه يسقط استدلال الأستاذ، فيقول مخاطباً الطلاب:



ـ هل ترون عقل الأستاذ؟



ـ الطلاب: كلا.



ـ التلميذ: إذاً الأستاذ لا عقل له؛ لأننا لا نرى هذا العقل.

إن هذه القصة ـ على بساطتها ـ إنما تشير إلى عدم استقامة المنهج القائم على إدراك ما تقدمه الحواس، دون الاستفادة من المدارك الأخرى.

قصة مندوب لينين إلى سمرقند:

ذكر أن لينين أوفد مندوباً إلى سمرقند لهدم المساجد والكنائس؛ ليفهم الناس أن لا شيء وراء المادة، وأن هذه العبادات ليست إلا سخافة. فجاء المندوب، وطلب إلى الناس أن يجتمعوا، ثم قال لهم: ماذا تعبدون؟ إن كان هناك إلٰه فلِمَ لا نراه بأبصارنا؟ ولِمَ لا نلمسه بأيدينا؟ ولِمَ لا نتذوقه بألسنتنا، ونشمّه بأنوفنا، ونسمعه بآذاننا؟ إذاً ليس وراء المحسوسات شيء. اهدموا المساجد والكنائس ودور العبادة.

فقام إليه أحد علماء المسلمين، وقد كان استعد لمناظرة هذا المندوب، بعد أن أحضر كرتين بحجم واحد، إحداهما من خشب، والأخرى من حديد، وهما من لون واحد، ووضعهما، وخاطب هذا المادي قائلاً:

قل لي، أي الكرتين أثقل؟ واستعمل حواسك الخمس كما استعملتها لمعرفة الخالق. فراح ذلك المادي يبصرهما ثم يلمسهما، ثم يشمهما، ثم يذوقهما، ثم وضع أذنه بالقرب منهما؛ ليسمعهما، ثم قال: لا أهتدي لمعرفة أثقلهما من خلال

الحواس الخمس، إلاّ أن عقلي يقول لي: إرفعهما بيديك؛ لتكتشف الأثقل[1].

عندها قال العالم المسلم: إذاً العقل هو المرجع الوحيد عند عجز الحواس الخمس وقصورها، وخطئها، وبالعقل يدرك الخالق. فبهت هذا المندوب وأدرك تهافت منطقه.

البصر الضعيف أمام المخلوق أضعف أمام الخالق

إن على الإنسان أن يخشع عقله وقلبه أمام عظمة الخالق الذي:

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

ولا يطلب لنفسه ما لا يطيق أو يتحمّل، بل إن الإنسان أعجز من أن يملأ بصره من مخلوقات الله، فكيف به يطمع بأن يمدّ بصره إلى الخالق (تبارك وتعالى)، وقد ورد في هذا المعنى خبر، عظيم العبرة، كبير الدلالة، تخشع له القلوب السليمة، والعقول الواعية.

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«يا بن آدم، لو أكل قلبك طائر لم يشبعه، وبصرك لو وضع عليه خرق إبرة لغطاه، تريد أن تعرف بهما ملكوت السماوات والأرض؟

---

(١) أمين، أحمد: التكامل في الإسلام، ط٤، قم، مؤسسة إسماعيليان، ج١، ص٥٣.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣.





إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلق من خلق الله، فإن قدرت أن تملأ عينيك منها، فهو كما تقول»[1].

بعد هذا العرض يتّضح لنا بأنه من غير المستغرب أن لا يكون العلم بالله (تعالى) والتثبت من وجوده وحضوره متوقفاً على رؤيته؛ لأنه ـ وكما تقدّم ـ لا تعتبر الحواس الطريق الوحيد إلى المعرفة.

(١) الصدوق، محمد ابن بابويه: التوحيد، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ص٤٥٥.



المعاند لن يؤمن ولو رأى الله

إن من صرف عقله عن سبيل الإقناع فلن يؤمن حتى ولو قُدّر لبصره أن يرى الله؛ لأن المعاند إنما يُلقي الشبهات لا ليحصل على إجابة، بل ليوقع الخصم في الإشكال، وحتى لا أطيل عليك، فإنني سأنقل نصاً لعباس محمود العقاد، ذكره في كتاب «الله» يتحدث فيه عن هذا المطلب فيقول:

«وآيات الله مكشوفة لمن يريدها ويستقيم إلى مغزاها، ولكنها هي وحدها لا تُقنع من لا يريد ولا يستقيم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[1].

فحتى العيان لا يفي لإقناع من صَرف عقله عن سبيل الإقناع؛ لأنه يتهم بصره وسمعه في ما رأى بعينيه وسمع بأذنيه، وكل شيء في الأرض والسماء كافٍ لمن جرّد عقله من أسباب الإنكار والإصرار».

فطلب الإيمان إن لم يكن هدفاً عند السائل فإنه لن يصل إلى نتيجة، كما أن عدم الشعور بحضور الله هو نتيجة البعد عنه.

(١) سورة الحجر: ١٣ ـ ١٤.

والوقوع في المعاصي هو الذي يجعل الإنسان في موقع السؤال عن أمور هي في غاية الوضوح.

وما أروع ما قاله الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لرجل من الزنادقة جاءه ينكر ما لا يقع تحت حواسه، حيث قال له الإمام عليه السلام:

«... ويلك! لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته، ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه ايقنا أنه ربُّنا، وأنه بخلاف الأشياء.

قال الرجل: فأخبرني متى كان؟

قال الإمام عليه السلام: **أخبرني متى لم يكن، فأخبرك متى كان...»**[1].

(١) البطرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، ط٢، طهران، مطبعة أسوة، ١٩٩٦، ج٢، ص٣٥٤.



كيف نرى الله؟

يمكن القول بأن الله (تعالى) يُرى، ولكن الرؤية لا تتوقف على ما تقدّمه العين، فإن الرؤية بوساطة القلب والذهن أكثر انعكاساً على صفحة النفس، وهذا ما عبَّر عنه الإمام علي عليه السلام عندما سُئل:

«هل رأيت ربك؟ حيث قال: وكيف أعبد من لم أره؟ لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»[1].

وإن علينا أن نحسن التأمّل في مدى قرب الله (تعالى) منّا:

﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[2].

فهو (سبحانه) ليس إلهاً معزولاً عن عباده، خلقهم واستراح، بل هو دائم الحضور بينهم. فالعجب لمن يسأل عنه كأنه لا يراه، والعجب لمن لا يشاهد أياديه، ونعمه الدائمة والقائمة في الليل والنهار.

وقد ورد: أنه دخل رجل من الخوارج على الإمام الباقر عليه السلام، وسأله:

---

(١) المجلسي: مصدر سابق، ج٣٦، ص٤٠٥.

(٢) سورة ق: ١٦.



يا أبا جعفر، أي شيء تعبد؟

قال الإمام عليه السلام: الله.

قال الرجل: رأيته؟

قال عليه السلام: **«بلى، لم تره العيون بمشاهد الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس، ولا يدرك بالحواس، ولا يشبه بالناس، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، لا يجور في حكمه، ذلك الله لا إله إلا هو»**، فخرج الرجل وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته[1].

فهل يعقل بعد هذا أن ندير ظهورنا بدعوى قصور أبصارنا عنه، والحق أن بصائرنا وقلوبنا هي التي لا تراه:

﴿...فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2].

وأما عندما تستفيق القلوب الواعية، وتنتعش النفوس المطمئنة، وتحلّق الأبدان من عالمها المادي، فإنها ترى ما لا يُرى، وتسمع ما لا يُسمع، فتصبح الحقائق أكثر من أن تعدّ، والآيات أكثر من أن تُحصى، لذا قال الإمام عليّ عليه السلام:

«... ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده ومعه...».

---

(١) الطبرسي: مصدر سابق، ص١٦٦.

(٢) سورة الحج: ٤٦.



لماذا خلقنا الله؟

* من هو الإنسان؟
* كمال وحقيقة الإنسان
* الخلق ليس عبثاً
* ما هو هدف الله؟
* ما هو هدف الإنسان؟
* الإنسان عاشق الكمال
* رسالة الأنبياء العظام
* رسالة أخيرة



رحم الله من عرف من أين؟ وفي أين؟ وإلى أين؟

أيها العزيز،

قد لا يبدو السؤال: «لماذا خلقنا الله؟» مباحاً أو حتى مستحباً، وإنما هو سؤال يقع في دائرة الوجوب والضرورة، وطرحه ليس ترفاً فكرياً، وإنما هو حاجة للفرد والمجتمع الذي يرنو نحو هدفية مُنجية، لا عبثية مهلكة، فمن البديهي أن يسأل الإنسان المفكر جملة من الأسئلة المهمة والمصيرية والتي منها:

ما هو الهدف الحقيقي الذي من أجله جاء الإنسان إلى الدنيا؟

ثم هل يحق لأي منا أن يختار دوراً وهدفاً وطريقاً دون التثبّت من حقانية هذا الدور؟ ومشروعية هذا الهدف؟ واستقامة هذا الطريق؟

لا شك أنها أسئلة مهمة، سيكون من الصعب الإجابة عنها دون أن تسعفني ـ أخي القارئ ـ بقليل من صفاء الذهن، وصدق النيّة في الحصول على إجابة مُنجية.





من هو الإنسان؟

بعد أن تمّ التعرّض في مطلع هذه الرسالة ـ ولو بشكل مختصر ـ للحديث عن «الله»، وطرحنا سؤالاً جوهرياً بعنوان (من هو الله؟) فمن المناسب أن نطرح سؤالاً جوهرياً آخر، بعنوان: (من هو الإنسان؟) لأن الإجابة عن هذا السؤال ستساعد كثيراً في توضيح هذا المطلب، الذي نبحث فيه.

من هو الإنسان؟

وما هي الحقيقة التي يتكوّن منها؟ والتي تشكّل منطلقاً لتشخيص ماهيّته؟

لقد ذكر العلماء كلاماً كثيراً في هذا الصدد وما يمكن استفادته مما بحث باختصار، هو أن للإنسان بُعدين[1]:

بُعداً مادياً (هو الجسد).

وبُعداً معنوياً (هو الروح).

فالإنسان يملك هاتين الحقيقتين، ويتكوّن منهما معاً، ويعيش بهما معاً، ويفتقر ـ دائماً ـ إلى إنعاشهما وتغذيتهما معاً.

---

(١) مظاهري: جهاد النفس، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار المحجة البيضاء، ١٩٩٢، ص٣٣.



فالبعد المادي ـ أي الجسد ـ على أهميته، وضرورة المحافظة عليه ومدّه بالغذاء، وإسعافه عند الحاجة بالدواء، ورعايته بالعناية والوقاية، والأخذ بأسباب السلامة، إلا أنه يشكّل وعاءً للروح، التي بدونها يصبح الجسد جثة هامدة، بلا قيمة أو حقيقة.

لذا فالبعد المعنوي ـ أي الروح ـ هي الحقيقة العليا، التي يحملها الإنسان، ويتكوّن منها، والتي وضع الجسد في خدمة أهدافها. هذه الروح، بها يسمو الإنسان فيعبّر عن إنسانيته، وبها يمتاز عن سائر المخلوقات الحيوانية، وبها يصل إلى أعلى المراتب، وأرفع الدرجات وأرقى المقامات الروحية والمعنوية، التي تُختص بها الأرواح الطاهرة والنفوس المطمئنة.

قيمة جسد الإنسان ٢٠ ماركاً ألمانياً

من أجل هذا، يتعيّن على الإنسان أن يدرك أولاً بأن قيمته وحقيقته هي في هذه الروح، وأما الجسد فهو وعاء هذه الروح كما مرّ. وإن من يقف في تقويم الإنسان على ظاهره المادي فإنه يقوّمه بثمن بخس. وقد نقل أحد العلماء[1] أن مهندساً ألمانياً أراد أن يزن قيمة الإنسان من الوجهة المادية، وخرج بنتيجة أن قيمة الإنسان المادية هي (٢٠) ماركاً ألمانياً، لماذا؟ يقول المهندس الألماني: الإنسان يملك (٤) كيلو من الكلس، وقدّر ذلك من الناحية الكيماوية والفيزيائية، وكذلك (٥) كيلو من

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٩.



الحديد، و(٣) كيلو من السكر، و... هذه الحقيقة ـ التي تدعو إلى السخرية ـ هي النتيجة الطبيعية لأي تعامل مادي مع الإنسان، بعيداً عن روحه وحقيقته المعنوية المقدسة، التي يحتضنها هذا الجسد، والتي بمقدار ما نمدّها بالغذاء والعناية والرعاية بمقدار ما تسمو وتتألق، وتنشط، شأنها في ذلك شأن الجسد، إلا أن نوع الغذاء والدواء يختلف بينهما.





كمال وحقيقة الإنسان

لقد أوردنا النظرة المادية للإنسان، ولقد بدت بوضوح أنها نظرة تحقيرية، يظهر فيها الإنسان على عظمته بلا قيمة، وبلا وزن. فما هي الصورة الحقيقية للإنسان العادي فضلاً عن الإنسان الكامل؟

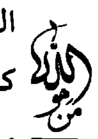
الإنسان هو صنيعة الله تبارك وتعالى وقد خلقه على صورته[1]، فكان تجلّياً لصفاته، وقد امتاز عن بقية المخلوقات بأنه يتقبّل القيم، ويعبّر عنها في حياته وسلوكه.

والإنسان الحقيقي، أو الإنسان الكامل هو من تنمو فيه القيم كلها نمواً متوازناً بشكل تحول الإنسان ـ بالمعنى المادي ـ إلى الإنسان بالمعنى الحقيقي؛ ولذا فإن إنسانية الإنسان هي من الحقائق العجيبة كما يعبّر بعض العلماء[2]؛ لأن لكل كائن صفة لا تنفصل عنه كالنمرية بالنسبة إلى النمر، والكلبية بالنسبة إلى

---

(١) ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجلين يتسابّان، فسمع أحدهما يقول لصاحبه: قبّح الله وجهك ووجه من يشبهك، فقال صلى الله عليه وآله له: «يا عبد الله لا تقل هذا لأخيك فإنّ الله عزّوجلّ خلق آدم على صورته». راجع: الصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٩٨٤م، ص١١٠.

(٢) مطهري، مرتضى: الإنسان الكامل، ط١، بيروت، دار الرسول الأكرم، ٢٠١٢م، ص٤٣.



الكلب.. بحيث لا تستطيع أن تجد نمراً لا نمرية فيه، أو كلباً لا كلبية فيه، أو حماراً بلا حمارية. وأما بالنسبة للإنسان فالأمر مختلف. فهو الكائن الوحيد الذي قد تجده بلا إنسانية، وذلك عندما يتجرّد الإنسان من مكوّنات الإنسانية الحقيقية حيث يبقى الشكل الإنساني ويغيب المضمون والجوهر والحقيقة الإنسانية المقصودة. فالإنسانية مقياسها ومعيارها معنوي، وليس مادياً، والإنسان وحده من يحقق المقدمات الضرورية التي تجعله إنساناً أو تُفقده هذه الصفة. وباختصار فالإنسان ـ الذي يفتح المجال واسعاً أمام القيم الفاضلة لتشكل إنسانيته ـ هو من يفوز بهذه الإنسانية بمعناها الحقيقي.

وكما تقدّم فالإنسانية الحقيقية، أو الكمال الإنساني إنما يتحقق عندما تظهر القيم على صفحات الإنسان بشكل متناسب ومنسجم، وهذا معناه أن لا تنمو أية قيمة على حساب القيم الأخرى؛ لأن من شأن ذلك أن يقطع الطريق على كمال الإنسان وبروز صورته الأبهى، فلا يغرق في العبادة مثلاً ويترك التكسب، ولا ينشغل بالدنيا ويترك العبادة، أو يتمسّك بالحرية ويستغرق فيها وينسى العدالة، أو المعرفة، أو الحكمة...

وهكذا فالإنسان بالمعنى الحقيقي الذي ينشد الكمال هو من تستيقظ فيه كل هذه الكمالات: العقل، الحب، العدالة، الحرية، خدمة الناس، العبادة...

فإذا كان لكل القيم الحظ والنصيب من الإنسان بشكل متوازن ومنسجم كان هذا الإنسان هو الفرد الكامل الذي نبحث عنه وننشده.



الخلق ليس عبثاً

بعد هذا العرض، يمكننا أن نقف على حقيقة الإنسان، والتي ستشكل منطلقاً لمعرفة هدفه في الحياة، ودوره، وطريقه.

فالذي لا يمكن أن يكون محل شك أو نقاش أن الإنسان لم يُخلق عبثاً، بلا هدف أو رسالة، يقول (تعالى):

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

فهل يُعقل لهذا النظام الذي يحيط بالكون من كل جانب، ـ والذي عرضنا بعض مشاهده في ما سبق ـ، أن يُختتم بعبثية، يمكنها أن تمحو الصورة كلها، وتشوّه كل المشاهد الرائعة الدقة والتنظيم في العالم؟

وهنا يمكننا التمييز بين نوعين من الأهداف، أو هناك جهتان يتوجه إليهما السؤال عن الهدف: هما الله (تبارك وتعالى) والإنسان. والذي لا شك فيه أن الحديث عن هدف الله مختلف تماماً عن الحديث عن هدف الإنسان.



(١) سورة المؤمنون: ١١٥.



ما هو هدف اللَّه؟

الهدف هنا يقع على أحد معنيين:

ـ المعنى الأول: نفي العبثية.

ـ المعنى الثاني: الحاجة والافتقار.

والذي يمكن تصوره عن هدف الله (تعالى) هو المعنى الأول، أي نفي أن يكون الفعل الإلهي عبثياً بلا غرض، فالله منزَّه عن هذا الأمر، وأما المعنى الثاني فلا يمكن تقبّله؛ لأن الله لا يفتقر إلى الإنسان، ولا تتعلق حاجته به حتى يخلقه. ولذا لا نسأل عن هدف الله من خلق الإنسان بهذا المعنى، وإنما نسأل عن حكمة الله (تعالى) أو عن السر الكامن وراء خلق الإنسان.

وما يمكن قوله عن الحكمة الإلهية، ـ وهو خارج حدود بحثنا ـ، هو أن الله (تعالى) أودع في الإنسان إمكانات عقلية ومعرفية، وملكات تعطيه الإرادة والقدرة، وبعد ذلك أراد اختبار الإنسان. على أن القرآن الكريم تحدث في أكثر من عشرين موضعاً عن الاختبار الإلهي، باعتباره سُنَّة كونية، من أجل تفجير الطاقات الكامنة، ونقلها من عالم الإمكان والقوة إلى عالم التحقق والفعل.





فالاختبار يصقل ويهذب شخصية الإنسان؛ ليصبح أكثر قدرة على مواجهة الصعاب والتحديات.

«فالاختبار الإلٰهي يشبه عمل زارع خبير، ينثر البذور الصالحة في الأرض الصالحة؛ كي تستفيد هذه البذور من مواهب الطبيعة، وتبدأ بالنمو، ثم تصارع هذه البذرة كل المشاكل والصعاب بالتدريج، وتقاوم الحوادث المختلفة، كالرياح العاتية والبرد الشديد والحرّ اللافح؛ لتخرج بعد ذلك نبتة مزهرة، أو شجرة مثمرة، تستطيع أن تواصل حياتها أمام الصعاب»[1].

يقول الله تعالى: ﴿. . . وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2].

نعم، إن الاختبار الإلٰهي يشدّد على ضرورة حصول التمحيص، وهو ـ أي التمحيص ـ مرتبة تفوق الامتحان شدّة ودقة واختباراً، وهو أيضاً، نوع من العيش في ظل ظروف ومناخات صعبة، يثبت بها المرء جدارةً أو ضعفاً، تماماً كما المقاتل الذي يخضع للتدريب، والمناورات القتالية المختلفة؛ ليشتدّ عوده، وينتصب قوامه، وتقوى بنيته، كل ذلك يحصل في ظل ظروف قاسية من التعب والجهد، المرافق للجوع والعطش، وغياب أسباب الراحة والهدوء. على أن من يثبت في

---

(١) الشيرازي: مصدر سابق، ج١، ص٣٨٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.





ظل هذه الظروف يمكن أن يكون مشاركاً في تحقيق إنجازات كبرى، كالنصر أو تحرير الأرض...

كما أن الاختبار من شأنه أن يُخرج الطاقات الكامنة، ويُظهر بدائع أهل المعرفة، فلولا هذا الاختبار لما تفجّرت القابليات، ولما أثمرت الكفاءات، والمعارف التي جاء بها أمثال نيوتن وأينشتاين وغيرهما...

وهنا ينبغي الالتفات إلى أن اختبار الله للبشر يختلف عن اختبار البشر بعضهم لبعض. فالمعلم يختبر التلميذ؛ ليعرف المستوى العلمي الذي وصل إليه هذا التلميذ، وأما اختبار الله للبشر فليس من هذا القبيل؛ وإنما اختباره (تعالى) ليعرف المختبَر ـ بالفتح ـ نفسه، لأن الختبِر ـ بالكسر ـ، (وهو الله تعالى) يعرف هذا الإنسان تمام المعرفة، وهو عندما يختبره، إنما يمكّنه من معرفة موقعه، وحقيقة عمله، ومدى التزامه.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«... وَإِنْ كَانَ (سُبْحَانَهُ) أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنْ لِتَظْهَرَ الأَفْعَالُ الَّتِي بِهَا يُسْتَحَقُّ الثَّوابُ وَالْعِقَابُ...»[1].



(١) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٦٤٥.



ما هو هدف الإنسان؟

إعلم يا أخي.

إن على الإنسان أن يتواضع في كل شيء، إلا عندما يرسم لنفسه أهدافاً وغايات، فينبغي أن لا يقنع بالقليل، فيشتغل بطلب الدنيا ـ مثلاً ـ عن طلب الآخرة أو يكتفي بمتاعها الزائل دون التطلع إلى النعيم المقيم.

ولذلك فإن الله (تعالى) شرّف الإنسان، بأن جعل هدفه شريفاً وغايته عظيمة، ومبتغاه راقياً، فقال (تعالى):

﴿يَٰأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1].

فالله هو هدف الإنسان، الذي لو تطلّع إلى أعماق نفسه لوجد صدىً للنداء الإلٰهي، يرفرف فوق قلبه، يطلبه دون أن ييأس أو يملّ النداء، ولذا على الإنسان أن يحسن التعرّف على نفسه، فالنفس هي الدليل إلى الله (تعالى):

«مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربّه»[2].

---

(١) سورة الانشقاق: ٦.

(٢) الآمدي، عبد الواحد بن محمد: غرر الحكم ودرر الكلم، ط١، بيروت، دار الهادي، ١٩٩٢، ص٣٥٢.

والله (تعالى) هو الذي حفر اسمه فوق قلب كل إنسان وهو دائماً يبدأ عبده بالوصال، وليس على هذا العبد إلا أن يُحسن صحبة النعمة، وينتهز الفرصة.



الإنسان عشاق الكمال

«... تيقّظ من نوم الغفلة، واستبشر فرحاً بأن لك محبوباً لا يزول، ومعشوقاً لا نقص فيه، ومطلوباً من دون عيب... إذن يستوجب عشقك الحقيقي معشوقاً حقيقياً، ولا يمكن أن يكون شيئاً متوهماً متخيلاً، إذ أن كل موهوم ناقص، والفطرة إنما تتوجه إلى الكمال. فالعاشق الحقيقي، والعشق الحقيقي لا يكون من دون معشوق، ولا يكون غير الله الكامل، معشوقاً تتجه إليه الفطرة...»[1].

وما ينبغي أن تعرفه أخيراً أيها الأخ العزيز.

إن الإنسان يمتاز بكونه لا يمكن أن يعشق المحدود والزائل الفاني (الوصال مقبرة الحب). والإنسان يعشق الكمال المطلق، ويبحث دون ملل عن السعادة الحقيقية، وهذا كله يوصله إلى الله، الذي ربما ينكره البعض، ولا يؤمن به، ولكنه ـ هذا البعض ـ لا يعرف **«أن في أعماق فطرته عشقاً وانسياقاً إلى الكمال المطلق، فهم يسعون إلى نفس الهدف مع المؤمنين، ولكنهم يخطئون الطريق إليه»**[2].

---

(١) الإمام الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، ط٦، بيروت، دار التعارف، ١٩٩٨، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

(٢) مطهري، مرتضى: الإنسان الكامل، ترجمة جعفر خليلي، ط٢، بيروت، مؤسسة البعثة، ١٩٩٢، ص٦٢.

ولو أصغوا إلى نداء القلب، وحديث الروح، وأداروا وجوههم قليلاً عن الدنيا، وأبصروا بها، بدل أن يبصروا إليها، لانكشف لهم الطريق، وظهر فوق قلوبهم الحبيب، والطبيب، والقريب.

يقول الإمام الخميني(رض):

«... فيا أيها الهائمون في وادي الحسرات، والضائعون في صحارى الضلالات، بل أيتها الفراشات الهائمة حول شمعة جمال الجميل المطلق، ويا عشاق الحبيب الخالي من العيوب، والدائم الأزلي، عودوا قليلاً إلى كتاب الفطرة، وتصفّحوا كتاب ذاتكم لتروا أن قلم قدر الفطرة قد كتب فيه:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . . .﴾[1]»[2].

---

(١) الأنعام: ٧٩.

(٢) الإمام الخميني: مصدر سابق، ص٢٢٧.



رسالة الأنبياء العظام

إعلم يا أخي...

أن الله (تبارك وتعالى) ـ وبسبب سعة رحمته ـ يسَّر جميع السبل، وفتحها؛ لتكون المرشد والدليل، لي ولك، ولكل طالبٍ للخير، أو باحث عن الحقيقة.

وهو (تعالى) قد جعل ـ كما تشير الروايات ـ على الناس حجّتين: حجَّة ظاهرة، وحجَّة باطنة. أما الحجَّة الظاهرة فالأنبياء والرسل. وأما الحجَّة الباطنة فهي العقول[١].

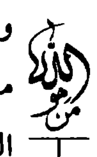
إن الله (تعالى)، ومنذ بدء الخليقة، قد وجّه إلى هذه الدنيا مبعوثيه ورسله، وحمَّلهم الهدى، ودين الحق، حيث وصل عدد الأنبياء إلى ١٢٠ الف نبيٍّ[٢]، كانوا يحملون رسالة السماء لأهل الأرض، فيحدثونهم عن قيم الخير، والمحبة، والعدل، والإحسان، ويدفعونهم إلى نبذ عبادة الأصنام من دون الله، ويصنعون لهم المعاجز، والآيات، التي لا يستطيع أهل الدنيا فعلها، كدليل على أن رسالتهم إلهية وليست بشريّة.

وقد شكّلت الرسالات السماوية الثلاث: اليهودية،

---

(١) الكليني: مصدر سابق، ج١، ص٦٠.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٨١.





والمسيحية، والإسلام، اتجاهاً واحداً، يدفع كل الآيات باتجاه معرفة الخالق، وتوحيده، والإيمان به، واعتباره الحقيقة المطلقة التي لا تضيع في غمرة المفاهيم السائدة في تلك الأزمنة المضطربة فكرياً.

وقد ضحى الأنبياء، وتحمّلوا ألوان العذاب، فكانوا يُحاربون، ويُسجَنون، ويُحاصرون، ويُقتَلون، وكان التهديد يلاحقهم، وهم في غمرة التبليغ والدعوة إلى رسالتهم، التي بذلوا في سبيلها كل ما يملكون...

وقد امتلكتهم ثقة عظيمة بالله (تعالى)، جعلتهم يثبتون ولا ينهزمون، فنرى نبي الله إبراهيم عليه السلام يبتسم، وهو يستعد لأن يُرمى به في النار، التي أعدّها له نمرود وجنوده، وعندما جاء جبرائيل إليه، وهو في الهواء، وسأله أن يطلب منه ما يريد؛ لإنقاذه من هذا الوضع، قال له: ما لي إليك حاجة (أي لا أطلب منك شيئاً)، وأما إلى ربّ العالمين فنعم[1]. عندها جعل الله النار برداً وسلاماً على إبراهيم، في حادثة تاريخية شهيرة، لا زالت تتناقلها الكتب.

وأما نبي الله موسى عليه السلام، فقد واجه فرعون، أكبر طغاة عصره، وعندما أمره الله أن يذهب إليه، مضى برفقة أخيه ومعه عصاه، ولم يطلب من الله أن يبعث معه جيشاً جراراً؛ ليكون عوناً له أمام الطاغية، وإنما طلب من الله مدداً من نوع آخر:

(١) المجلسي: مصدر سابق، ج١٢، ص٣٦.



فقال:

﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾[1].

وقال:

﴿... إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[2].

فكان أن نصره الله على فرعون، وأبطل سحر ساحريه، بمعجزة بيِّنة، جَعلتْ من السحرة أوّل المؤمنين، بعد أن كانت مهمتهم هي تسفيه ما جاء به موسى عليه السلام.

وأما روح الله عيسى بن مريم ـ عليه وعلى أمّه العذراء أتمّ السلام ـ فقد كان رسول الفقراء والمساكين، وقد حمل الرسالة إلى بني إسرائيل، وراح يدعوهم إلى دين التوحيد، ويقول:

﴿... أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3].

وقد بعثه الله إلى بيت المقدس، إلى بني إسرائيل، ولم يزل يدعوهم مع كل هذه الآيات، إلى توحيد الله وشريعته الجديدة، فأبى أكثرهم إلا طغياناً وكفراً. وقد مكث يدعوهم ويرغّبهم بما عند الله ثلاثاً وثلاثين سنة، حتى آيس من إيمانهم لما شاهد من عناد القوم، واستكبار الكهنة والأحبار عن ذلك، فانتخب ممن

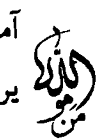
---

(١) سورة طه: ٢٥، ٢٦.

(٢) سورة الشعراء: ٦٢.

(٣) سورة آل عمران: ٤٩.





آمن به الحواريين أنصاراً له إلى الله، ثم إن اليهود ثاروا عليه يريدون قتله، فتوفاه الله ورفعه إليه.

وقد مكّنه الله (تعالى) من شفاء المرضى ممن لا عهد لهم بالشفاء، فكان يُبرئ الأكمه والأبرص، بل كان يحيي الموتى ـ كما تقدّم في الآية ـ كل ذلك بإذن الله.

وأعطاه الله (تعالى) هذه القدرة ليتمكن من توجيه أنظار قومه إلى الله، الذي أراهم ما تدهش له عقولهم..

وأما خاتم الأنبياء والرسل، وحامل رسالة الإسلام، محمد ﷺ، فقد اختصه الله (تعالى) بمهمة كبيرة وهي تقديم الرسالة الخاتمة، التي تمثل خلاصة رسالات السماء، والتي لم تأت لتلغي الرسالات السابقة وإنما جاءت لتقرّها، وتعترف بحقانيتها أولاً، ولتتمّها وتكمل أهدافها ثانياً، حيث يقول (تعالى):

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ. . .﴾(١).

وقد جاءت دعوة الإسلام إلى نظام تام، وقانون شامل يمكنه أن يقود الحياة، ويلبي حاجات المجتمع.

وقد تحمّل نبي الإسلام مشاق عظيمة، وحوصر، ورُمي بالحجارة، ولكنه مع ذلك مثّل أروع النماذج للداعية، وأصدقها وأرقاها، فكان يصبر على الأذى في جنب الله، ولا يبادر إلا إلى الصفح، والعفو، والإحسان إلى المسيء.

(١) سورة آل عمران: ٣ و٤.

ويحدثنا التاريخ أن جاراً يهودياً كان يُلقي الأوساخ على دارة النبي ﷺ وبشكل مستمر، وذات مرة انقطع عن هذا العمل، فلما التفت النبي ﷺ إلى ذلك، ذهب لعيادته، والاطمئنان إليه، فلعله قد أصابه المرض. ولما رآه اليهودي، وعلم بسبب قدومه، لم يملك إلا أن خشع عقله وقلبه لهذا النبي، وهذا الدين الذي يأمر بهذا الخُلق الرفيع، وآمن من فوره على يدي الرسول ﷺ.

واعلم يا أخي..

أن ما ذكرته لك ليس إلا غيضاً من فيض معاناة الأنبياء في طريق الهداية، فهم كانوا يصبرون من أجل أن يوصلوا صوتهم إلى أذنيك، وتصل كلماتهم إلى قلبك وعقلك، فيستيقظ إيمانك بها، ويصحو عقلك عليها.

فما ذكروه، وما تركوه من آثار، وفي طليعتها الكتاب الخاتم والخالد والمعجز، القرآن الكريم، يشكل دستوراً، ونظاماً، وكتاب هداية للبشرية، هدفه الأسمى إخراج الناس من الظلمات إلى النور.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ...﴾[1].



---

(١) سورة البقرة: ٢٥٧.



رسالة أخيرة

«... ما أسرع الساعات في اليوم، وأسرع الأيام في الشهر، وأسرع الشهور في السنة، وأسرع السنين في العمر»[1].

لقد كان الإيمان بالله منذ القدم مفهوماً يتشارك فيه كثير من الناس، ولكنه ـ مع ذلك ـ يختلف اختلافاً كبيراً، شدةً وضعفاً، من فرد إلى آخر. ولذا أسمح لنفسي أن أترك بين يديك ـ أخي وصاحبي ـ رسالة أخيرة، أو وصية نفيسة، أرجو أن لا تقصّر في حفظها والالتزام بها.

رسالتي إليك.. هي الصلاة..

فلا معنى للإيمان بدون صلاة، ولا معنى لمعرفة الله من دون صلاة. ولا معنى للتعلق بالله (تعالى) دون الاتصال المباشر به، والتواصل الحقيقي معه. والصلاة هي التي تقوم بهذا الدور، وتؤدي هذه الوظيفة.

الصلاة معراج المؤمن إلى الله، وهي باب لقاء الله المفتوح يومياً مع الفرائض الخمس، التي تُشكّل تطهيراً دائماً من دنس الدنيا وعلائقها، وتُؤمّن ارتباطاً دائماً يحول دون نسيان الحق، والركون إلى الباطل.

(١) نهج البلاغة، مصدر سابق، ص٣٨٦.

الصلاة هي مفتاح قبول الأعمال، فهي ـ كما في الخبر المأثور ـ «عمود الدين»، كإشارة إلى أهمية هذه العبادة، وتميزها عن غيرها بأنها:

«إن قُبلت قُبل ما سواها، وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها»[1].

فالصلاة هي الميزان، وهي خير موضوع[2] يمكن أن يتقرّب به عبد من خالقه.

فتصور ـ أيها العزيز ـ هذا الخالق الذي لا يطلب من عبده القرابين ولا الأضاحي، بل يطلب منه أن يلتقي به، ويقف بين يديه كل يوم عدة مرات، ويعلن أن بابه مفتوح للقائه، والحديث معه.

فأي نعمة هي نعمة الصلاة، وأي خير هو هذا الخير المتدفق من هذه العبادة، فهل ننسى الصلاة؟! أو نقصر في أدائها؟!

---

(١) الصدوق، محمد بن علي: الآمالي، ط٤، قم، المكتبة الإسلامية، ١٩٨٣، ص٦٤١.

(٢) النوري، حسين: مستدرك الوسائل، قم، مؤسسة آل البيت، ١٩٨٧، ج٣، ص١٤٣.



خاتمــة

إنني على ثقة تامّة بما أنت عليه الآن، أتعقّب خطرات قلبك، وأديم النظر في وجهك، وأعلّق كبير الأمل على نقاء سريرتك، وخُلوص نيّتك، فأراك بشوق تحزم حقائب سفرك، وتعلن عن ساعة رحيلك إلى حيث تستعيد وعي ذاتك، وترجع إلى ربّك الذي ينتظرك قبل أن تسعى إليه، ويشتاق إلى لقياك، وأنت كنت معرضاً عنه.

هنيئاً لك ـ يا أخي ـ هذه العاقبة، التي هي من نعم الله عليك، فلا تقصّر في شكرها، «وبالشكر تدوم النعم»، ولا تغفر لنفسك إذا جنحت عن هذا الحق الذي عرفته، أو غفت عن النور الساطع حولها، وعادت إلى ظلام النفس، وسجن البدن، المانع من التطلع إلى بريق الإيمان المشع من الآيات، وما أكثرها.

لن أنسى أن أشكر صبرك على متابعتي في هذه الرسالة، والتي أردتُها أن تكون خاصة بالشباب، سيما في الجامعات ممّن يعوزهم مخاطبة القلب والعقل معاً، دون انزلاق في إفراط أو تفريط.



وعلى أمل أن أوفّق لموافاتك في نص جديد، يحمل إليك



حديثاً صادقاً، وقولاً رضيّاً، وكلمةً طيبةً، أستودعك الله الذي سيبقى برفقتك، وإلى جنبك، إن أحسنتَ صُحبته.

والسلام عليك.

حسين فضل الله





المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ نهج البلاغة، ط١، بيروت، دار التعارف (١٩٩٠).

٣ ـ الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ط١، بيروت، دار التعارف (١٩٩٠).

٤ ـ القمّي، عباس: مفاتيح الجنان، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلمي (١٩٩٢).

٥ ـ سبحاني، جعفر: عقائدنا الفلسفية والقرآنية، ط١، بيروت، دار الروضة (١٩٩٣).

٦ ـ الهادي، جعفر: الله خالق الكون، ط٢، بيروت، دار الأضواء (١٩٨٦).

٧ ـ ناصر مكارم الشيرازي ومحمد هادي معرفة: تفكّروا في عظمة خلق الله، ط١، بيروت، دار المحجّة البيضاء (٢٠٠١).

٨ ـ Bertrand Russel, Why I am not a Christian, Simon Schuster, New York, 1975, inc.



٩ ـ الشيرازي، حسن: كلمة الله، ط٣، بيروت، مؤسسة الوفاء (١٩٩٣).

١٠ ـ الطبرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، مشهد، نشر المرتضى (١٩٨٢).

١١ ـ ري شهري، محمدي: ميزان الحكمة، بيروت، الدار الإسلامية (١٩٨٥).

١٢ ـ التبريزي، ميرزا جواد: السير إلى الله، ط١، بيروت، دار البلاغة (١٩٩٠).

١٣ ـ مظاهري: المعارف والعقائد الإسلامية، ترجمة لجنة الهدى، ط١، بيروت، دار المحجّة البيضاء (١٩٩٣).

١٤ ـ الشيرازي، ناصر مكارم: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ط١، بيروت، مؤسسة البعثة (١٩٩٢).

١٥ ـ مطهري، مرتضى: العدل الإلهي، ترجمة: محمد الخانقاني، ط٢، بيروت، الدار الإسلامية (١٩٨٥).

١٦ ـ الخرازي، محسن: بداية المعارف الإلهية، ط٦، قم، مؤسسة النشر الإسلامي (١٩٩٩).

١٧ ـ صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب (١٩٩٤).

١٨ ـ الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب الحيوان، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي (١٩٦٩).





١٩ ـ دستغيب، عبد الحسين: التوحيد والعدل، ترجمة: أحمد قبانجي، ط١، بيروت، الدار الإسلامية (١٩٨٧).

٢٠ ـ القمي، عباس: سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار، ط١، قم، دار الأسوة، (١٩٩٣).





الفهرس









ما أشدّ فرحي واغتباطي عندما كان يُخبرني بعض من قرأ كتابي أنه انكبّ على مطالعته بشغف ودون توقف حتى ختمه.

وما أكثر سروري عندما كنت أعلم أن الشباب خصوصا - وجلّهم من طلاب الجامعات - كان لهم الحظ الأوفر في الاستفادة من كلماتي..

فإلى الشباب الجامعي الواعد...

شكراً لكم لأنكم لا تزالون تصرّون على القراءة في زمن تغيّرت فيه الأبجدية، واستُبدِل الحرف الناطق بحروف رقمية.

أقل ما يقال فيها: إنها حروف عمياء، عرجاء، تُكتب ولا تُقرأ، تُقرأ ولا تُفهم، وتُفهم ولا تَنفع..

المؤلف




لبنان - بيروت - برج البراجنة - الرويس - شارع الرويس
تلفاكس: 00961 1 545133 - 00961 3 689496 - ص.ب. 307/25
www.daralwalaa.com - info@daralwalaa.com - daralwalaa@yahoo.com


ISBN 978-614-420-089-6
9 786144 200896
Moujtaba Grfk 70 171861